

رحلة إلى الأندلس

١٨٩٣

أحمد زكي

سحب وتعديل جمال حتمل

مدونة ابو عبدو

دراسة وتقديم: محمد كامل الخطيب

الاشراف الفني : زهير الحمو

رحلة إلى الأندلس



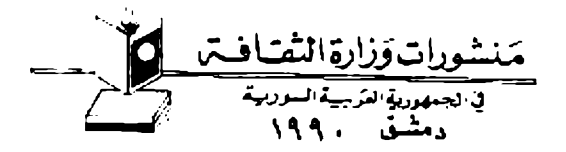
رحلة إلى الأندلس

١٨٩٣

أحمد زكي

دراسة وتقديم:

محمد كامل الخطيب



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٠

رحلة الى الأندلس / أحمد زكي ؛ دراسة وتقديم محمد كامل الخطيب . ــ دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٠ . ــ ١١٠ ص ؛ ٢٠ سم .

١ ــ ٩١٤٫٦ ز ك ي ر ٢ ــ العنوان ٣ ــ زكي
٤ ــ الخطيب مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ــ ١٩٩٠/٩/٨٥٤

« قلبي بالأندلس مدله ، وعقلي بأطلاله موله ،
وهيامي بأهله حديث قديم ، وغرامي بساكنيه
مقعد مقيم ، وحنيني إليه متجدد حينا بعد حين
ونحيبي عليه يجب له فيه الأنس والحنون ،
فاعذروني على هذا الهوى العذري ، فقد
خانني شعري ولم يساعفني نثري ، على أنني
أعلل نفسي بأن تستمعوا همسي ، وتعاونوني
على احياء أندلسي ، فذلك الهوس هوسي ،
وقد لازمني في حلمي وفي حسي ، واستمكن
من عقلي واستولى على نفسي »

«أحمد زكي»

« ...وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب ،
والنفس بحق زيارته أطلب ... ، لهفت
النفس بمرآه الأرب ، واكتحلت العين في ثراه
بآثار العرب » .

«أحمد شوقي»

١ ـ عن الرحلة :

ترمز رحلة رحالة ما الى دلالة تاريخية وثقافية واجتماعية تتجاوز في كثير من الاحيان كونها مجرد رحلة مغامرة او استكشاف شخصية ، فالرحلة كثيرا ماتكون رمزا ودلالة على وضعية او مرحلة تاريخية لمجتمع ما وثقافته بقدر ما هي دلالة على الرحالة ونفسيته وحالته الفردية ، فرحلة رحالة مثل ادوار لين الى مصر وسوريا (عادات المصريين المعاصرين وأخلاقهم : ١٨٣٦) مثلا لها عكس دلالة رحلة نشرت في الفترة نفسها (هي رحلة رفاعة رافع الطهطاوي الى باريس ، «تلخيص الابريز في تلخيص باريز ١٨٣٤» فاذا كانت رحلة ادوار لين ، وكل الرحلات الاوروبية الى المنطقة العربية رمزا من رموز التفوق والسيطرة

الاوروبيين ،مثلما هي شكل من اشكالهما ، ومثلما هي ، في كثير من الاحيان ، عمليات استكشاف تمهيدا للاستعمار الاوروبي ، فان رحلة الطهطاوي الى باريس . وكل الرحلات العربية الى اوروبا ، ترمز وتشير الى شكل آخر من المجتمعات وهي المجتمعات الضعيفة . انها رحلة ترمز أو تشير الى مجتمعات تتعرض للتفوق وللسيطرة الاوروبيين ، وتشير الى الرغبة في التعلم واكتشاف سر تفوق الاخر عند الاوروبي . تشير الى شعور بالتخلف والرغبة في تجاوزه لاحقاً ، وربما من هنا تأتي تلك النظرة الاستعلائية التي نراها في رحلات غالب الرحالة الاوروبيين حيث الشرق هو مكمن الغرابة ومسرح التخلف ، حيث الشرق ارض مفتوحة للسيطرة . وبالمقابل نجد في رحلات الرحالة الشرقيين ، ومنهم العرب . نظرة الاعجاب والانبهار ، بل وعقدة الدونية ، احيانا كثيرة ، تجاه اوروبا متفوقة في علومها وصناعتها وثقافتها ، اوروبا سينسج كل شرقي وعربي حلم زيارتها ، وبناء البيت على طرازها ، بل وارتداء ملابسها وتناول طعامها ، وبالطبع لايخلو الامر ، احيانا ، من نظرات نقدية للرحالة

العرب تجاه بعض مظاهر الحياة الاوروبية ، لكن ذلك لايمس ما هو عام .

بالامكان التوسع بهذه الفكرة ، وربما الوصول بها الى رحاب اوسع عبر تقليبها على وجوهها عبر التاريخ كما ان بالامكان اختبار مصداقيتها عبر شواهد من ادب الرحلات على مر العصور ، وكتمرين في اختبار مصداقية هذه الفكرة نتساءل :

ألا تشكل رحلة ماركو بولو الى الصين اوائل القرن الثالث عشر الميلادي اول عملية استكشاف اوروبي للشرق الاقصى في سبيل استعماره فيما بعد ؟ ألا نستطيع اعتبار رحلة كريستوفر كولومبس الى امريكا محاولة للوصول الى الشرق عبر طريق خلفية تمهيدا للاستيلاء عليه ؟ وهل كانت رحلات السندباد وابن فضلان وابن بطوطة وابن جبير الا اعلانا عن ثقافة واحدة كانت في مرحلة قوتها وسيطرتها، بل وانتشارها ، واخيرا ، هل كانت رحلات الاوروبيين ، والتي تكاثرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الى بلاد العرب ، الا

تمهيدا واعلانا لبداية السيطرة الاوروبية ـ الرأسمالية على العالم ، واستكشافا وتمهيدا لعملية الاستعمار التي اتت فيما بعد ؟ . .

وهل كانت رحلات العرب الى اوروبا في الفترة نفسها الا رحلات انبهار واعجاب ، رحلات تعلم واقرار بتفوق اوروبا ؟ . .

لكن مابين هاتين الرحلتين ، رحلة القوي للسيطرة ، ورحلة الضعيف للتعلم ، ما بين رحلة النهب الاستعماري ، رحلة المواد الاولية المهربة ، ما بين رحلة الخبير والغازي والاداري والعسكري الاستعماري الى البلاد العربية ، ورحلة العامل العربي والمنفي السياسي والطالب الى البلاد الاوروبية ، مابين هاتين الرحلتين ، ثمة رحلة ثالثة ، رحلة ليست للنهب ، وليست للاستكشاف والسيطرة ، كما انها ليست للتعلم ، ولا تورث أي احساس بالصغار والتخلف ، بل ربما تحتوي شيئا من الفخار ، رحلة هي مزيج من الاسى والفرح ، رحلة اشبه بالتطهر والحج الروحي ، رحلة مضمخة بعطر الذكرى وشفافية الحنين ، رحلة فيها قلق البحث عن الجذور ، وربما ذلك الأمل المبهم في لقاء الاب الذي

سافر ولم يعد ، فسافر الابن بحثا عنه ، انها رحلة شيخ يبحث عن عطر صباه ، وزمان يبحث عن مكانه ، مثلما هي رحلة شجرة تبحث عن جذورها ، وثقافة تبحث عن أرضها وزمانها . . لعلكم عرفتم هذه الرحلة ، انها رحلة العربي اليوم الى اسبانيا ، ولنستعمل الاسم العربي المحبب : الاندلس .

معروفة كثيرا الرحلات من النوعين اللذين بدأنا بهما حديثنا ، سواء رحلات الاوروبيين الاستكشافية أم الرحلات العربية التعليمية ، رحلات النهب الاستعماري ، أم رحلات البحث عن عمل ، رحلة المواد الاولية والايدي العاملة التي تذهب من ارضنا وتعود الينا على شكل مصنوعات بعضها مفيد وبعضها مضر ، لكنها كلها تؤكد السيطرة الاوروبية– الامريكية الرأسمالية علينا ، لكننا قليلا ما ننتبه الى رحلات النوع الثالث ، رحلات الحنين ، اننا نقرأ بشغف رحلات الغرب الى الشرق ، ورحلات الشرق الى الغرب ونبحث في تطور النظرة عند كل منهما الى الاخر ، لكننا قلما نتنبه الى رحلة العربي الى الاندلس ، والى دلالتها ، فهل حان وقت ذلك ٠٠٠؟

٢ - رحلة الحنين :

ربما كانت رحلة زكي (١٨٦٦ — ١٩٣٤) المتضمنة في كتاب « السفر الى المؤتمر » اول رحلة عربية مدونة الى اسبانيا في العصر الحديث (١٨٩٣) وفي هذه الرحلة اطلق أحمد زكي اسم « الفردوس المفقود » على الاندلس وقدم اساس كل الاحاسيس والاقوال التي نراها في الرحلات التالية ، وبدءا من هذه الرحلة وضعت اسس رحلة الحنين في الادب العربي ، بل وضع الاساس الروحي لكل رحلة عربية آتية الى الاندلس عبر التسمية التي تمزج فرح الفردوس بأسى الخروج منه ، وكأن العربي آدم فقد ، والى الابد ، فردوسه ، ولم يبق له الا الذكرى بل ووجد الشاعر العربي « ادونيس » في الاندلس معادلا للراحة والقوة النفسية الروحية ، فتحدث عن : « أندلس الاعماق » ، وربما وجد الرحالة العربي في الاندلس بديلا لشعر الوقوف أو البكاء على الأطلال . وهو فن قديم في الشعر العربي كما هو معروف ، ويبدو ان الرحلة الى الاندلس تستجيب لدى العربي لذلك الشوق النوستالجي للماضي والقديم عند الانسان عموما .

بعد رحلة أحمد زكي دونت رحلات كثيرة ، وهي تشكل مكتبة عربية ضخمة في ادب الرحلات ، مثلما تشير الى نوع جديد من ادب الرحلة ، نوع يختلف عن نوعي الرحلتين السائدتين ، رحلة القوي الغالب في بداية وقمة انتشار سيطرته وثقافته ، ورحلة الضعيف المغلوب طالبا ما عند القوي في بدء تلمسه لذاته ، انها رحلة جديدة ، رحلةشفافة بعيدة عن المطامع والآمال ، مطامع الغني وآمال الفقير ، وربما لهذا يصح وصفها بالرحلة الروحية ، أو رحلة الحنين . ولن نسرد عليكم قائمة باسماء هذه الرحلات فاكثرها معروف ، وثمة فهرس لبعضها في مكان آخر ، لكنكم تجدون رحلة أحمد زكي كاملة فيما يأتي .

٣ ـ رحلة شخصية :

وبما أننا تحدثنا عن أول رحلة عربية حديثة الى الاندلس للتعرف عليها ، فاسمحوا لي ان اتحدث عن رحلة من اخر الرحلات الى اسبانيا ، اسمحوا لي ان اروي قصتي كعربي زار اسبانيا ، وان اروي قصة تعرفي على الاندلس واليها :

في مخيلتي وذاكرتي ، كانت ، وربما ما زالت ، الاندلس تبدو من الناحية الثقافية ، مثل مصر والشام والعراق ، أحد مراكز الثقافة العربية ، وربما لست وحدي من يفكر بقرطبة كما يفكر بالكوفة ، وباشبيليا بني عباد ، كما يفكر بحلب بني حمدان ، ويفكر بالقاهرة كما يفكر بغرناطة ، فالشيخ ابن عربي اتى من الاندلس وعاش وابدع في سوريا ، ثم هاهو يرقد في سفح قاسيون وابن خلدون ولد في تونس ، لكنه مارس السياسة والقضاء في الاندلس ومصر والشام ، وزرياب ذهب من العراق حاملا الغناء الى الاندلس . في واعيتي الثقافية ، كما في واعية كل عربي تعتبر هذه الامكنة ، كما كانت في واعية ابن خلدون وابن عربي وزرياب ، نقاطا متفرقة تشكل كلها خريطة الثقافة العربية ، فهي مجال ثقافي واحد وابو تمام السوري ليس أكثر قربا إلي من ابن رشد الاندلسي،الى ان رأيت مرة في مطار باريس رجلا شرقي الملامح ، بل وسوريها ، كان مجبصن الساق بحيث يبدو غير قادر على الحركة ، وكان في قاعة الانتظار ، ولا ادري لماذا احسست اني اعرف وجه هذا الرجل ،

فربما كان من ابناء بلدتي الصغيرة . فنحن سكان المدن الصغيرة نعرف بعضنا بالوجوه ، ونحس بمشاعر التضامن في الغربة مهما كانت علاقتنا في بلداتنا ، وقتها قلت في نفسي : لقد عرفني ايضا ، فقد كان ينظر باتجاهي ، وعلي واجب مساعدة ابن بلدتي . تقدمت منه وسألته بالعربية طبعا :. مسافر الى الشام ؟ يبدو ان الرجل فهم من كلامي انني غريب مثله يرطن بلغة لا يفهمها ، فهز رأسه مبتسما وهو يقول : اسبانيول . . اسبانيول . . ومن وقتها بدأت اعرف : كم هي قريبة . . وكم هي بعيدة . . هذه الاسبانيول . . هذه الاندلس ، لكن الاندلس بقيت في ذاكرتي ومخيلتي مثل بلاد الشام والعراق ومصر والمغرب ، وان بعدت في الزمن اكثر بعد حادثة المطار الباريسي ، الى ان زرت اسبانيا للمرة الاولى في العام الماضي ، وتجولت في ريف الاندلس وفي ازقة طليطلة ومدريد واشبيليا وغرناطة ، ورأيت زيتون وريحان قريتي في قرى الاندلس ، مثلما رأيت أزقة وبيوت دمشق في اشبيليا ، ثم شابهت بني صافيتا وطليطلة ؛ مثلما شابه الاندلسيون بين مدنهم ومدن الشام ، . . وعندها بدأت اعرف انني مثل غيري من ابناء ثقافتي الذين يرحلون

الى اسبانيا . احس بعطر الذكرى وتشابه المكان ،
فأسبانيا ، كسورية ، بلاد جميلة ودائمة الخضرة ،
كالزيتون ، كالريحان ، وكالليمون . في أسبانيا بدأت
افهم بأي حنين ، وبأي زاد نرحل الى الاندلس ، ووقتها
بدأت كغيري من ابناء ثقافتي احس بشفافية الحنين ،
وبشيء يشبه الحلم ، وربما بدأت من وقتها افهم الثقافة
الاسبانية اكثر ، من يومها بدأت افهم ذلك الخيط الذي
يخترق كل ما قرات من فكر وادب اسباني ، وهو المقولة
التي عبر عنها الاسباني العظيم « كالدرون » في عنوان
ومغزى مسرحيته « الحياة حلم » ومن يومها وانا اتساءل :
ترى . . اي دور ساهمت فيه قصة العرب في الاندلس ،
وهي قصة عبرت ، أو تبدو كالحلم ، في تشكيل هذه
الرؤية الانسانية الأسبانية الاسيانة للوجود ، هذه الرؤية التي يمكن
اعتبارها مع دون كيشوت ، ذلك الحالم العظيم الاخر ، من
أثمن ما قدمته الثقافة الاسبانية الى الثقافة الانسانية الشاملة ،
بل ربما كانت هذه الفكرة « الحياة حلم » هي جوهر الوعي
الاسباني الأسيان للوجود منذ رأى ابن زهر الاشبيلي ان
« زمان الوصل في الاندلس كان حلما » ، الى آخر

رواية اسبانية قرأتها ،ورؤيتها أن الحياة حلم ، لكن ذلك امر اعتقد ان الاصدقاء الاسبان أكثر قدرة وجدارة على دراسته وفهمه . . أو تلك قصة أخرى على أي حال .

الحياة حلم . . نعم الحياة حلم ، وحنين العربي الى الاندلس ليس الا حنينا الى حلم جميل مضى ، وأجمل مافي هذا الحلم هو اقسى ما فيه ، وهو انه حلم جميل لايستعاد . . حلم لم يبق منه الا عطر الذكرى والثقافة التي بقيت للبشرية . . والتي تقول أن العرب لم يكونوا في الاندلس مجرد غزاة أو فاتحين .. وان ما يبقى للبشر ليس البغضاء والفتح والحروب ، بل الاحلام والثقافة والفلسفة والشعر ولكن أليس الافضل وربما الاجدى ، والاجمل ، ان يكون لنا مع حلم الماضي الاندلسي بعظمته وأثيريته وفردوسيته ، حلم بالمستقبل ، ومع اندلس الماضي وفردوسها ، اندلس المستقبل وفردوسه،وأن ننسج معا ، عربا واسبان ومن كل الشعوب،بدل أحلام الماضي التي لن تستعاد،أحلاما للمستقبل الانساني ، حيث الارض فردوس للجميع ، لنحلم بيوم تصبح فيه الكرة الارضية اندلسا واحدة . لنحلم مع ذلك

الانساني الاسباني للعظيم « دون كيشوت » بأندلس يسودها حلم العدالة للبشرية جمعاء، مثلما نحلم مع أدونيس بأندلس الاعماق الانسانية ، وبذل الندب على فردوسنا المفقود . . لننسج معا وفي كل مكان ، حلم فردوس هذه البشرية التي تكاد تقف اليوم على اعتاب الجحيم .

محمد كامل الخطيب
دمشق ــ ١٩٩٠

* * *

ملاحظات

١ ـ عن المقارنة بين رحلة الشرقي الى الغرب ، ورحلة الغربي الى الشرق ، يمكن مراجعة كتاب: الرحلة الى الشرق والرحلة الى الغرب ـ د . ناجي نجيب . دار الكلمة ـ بيروت ١٩٨١

وفي هذا الكتاب مقارنة بين رحلة الطهطاوي الى الغرب ١٨٣٤ ورحلة ادوار لين الى الشرق ١٨٣٦

٢ ـ عن رحلات الاوروبيين الى البلاد العربية ، وكيفية رؤيتهم لها ، يمكن مراجعة الكتب التالية :

آ ـ غربيون في بلاد العرب (سليمان موسى ـ وزارة الثقافة والاعلام) عمان ١٩٦٩

ب ـ الاستشراق (ادوار سعيد ـ ترجمة كمال ابو ديب ـ بيروت ١٩٨١

ج ـ اساطير اوروبا عن الشرق (رنا قباني ـ دار طلاس دمشق ١٩٨٨)

٣ – عن الرحلات العربية الحديثة الى اوروبا ، يمكن مراجعة الكتاب الهام الشامل : الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة : تأليف : الدكتورة نازك سابا يارد – مؤسسة نوفل – بيروت – ١٩٧٩

٤ – عن أحمد زكي يمكن مراجعة الكتاب التالي :

أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة. تأليف: أنور الجندي

الهيئة المصرية العامة – القاهرة – ١٩٦٤

سلسلة أعلام العرب : ٢٩



ملحـــق

فهرس بأسماء بعض الرحلات والرحالة العرب الى الاندلس ، فربما يساعد هذا الفهرس في دراسة الرؤية العربية الحديثة للاندلس واسبانيا ولرحلة الحنين ، والفهرس يعتمد على كتاب نازك سابا يارد :

— الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة

★ ★ ★

١ — ابو بكر ، سعيد التونسي ت ١٩٤٨ :

دليل الاندلس أو الاندلس كأنك تراها — تونس ١٩٣٣

— رحلة الى اشبيليا وقرطبة عام ١٩٢٩ —

٢ — البتنوني ، محمد ابيب بك (ت ١٩٣٨) .

رحلة الاندلس — (١٩٢٦) — القاهرة ١٩٢٧

٣ — بنت الشاطىء :

رحلات الى اسبانيا — جريدة الأهرام —

٤ — التونسي ، علي الورداني :

الرحلة الاندلسية — نشرت في « المحاضرة» التونسية في اعدادها الاولى

رحلة الى تركيا واسبانيا وفرنسا سنة ١٨٨٧ . لم تنشر هذه الرحلة في كتاب مستقل .

« المحاضرة جريدة يومية تونسية صدرت في ٢ آب ١٨٨٨ لصاحبها علي أبو شوشة » .

٥ — الخالدي ، محمد روحي :

رحلة الى الاندلس — مخطوط

٦ — شوقي أحمد :

الرحلة الى الاندلس ١٩١٥ — ١٩١٩ (في الشوقيات ج ٢. قصيدة مع مقدمة .)

٧ — فروخ ، مصطفى :

رحلة الى بلاد المجد المفقود (١٩٣٠) — بيروت ١٩٣٣

٨ — الكيالي ، سامي :

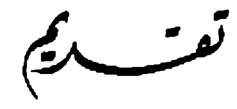
في الربوع الاندلسية (١٩٥٤) حلب ١٩٦٣ .

وبالطبع هناك رحلات مدونة أخرى صدرت وما تزال تصدر في كتب مستقلة .

رحلة إلى الأندلس - ١٨٩٣

أحمد زكي

١٨٦٦ — ١٩٣٤



ثمة قانون معروف في الانتشار الثقافي ، وهو ان اي ثقافة في مرحلة نهوضها وسيطرتها تنتشر وتنشر مكوناتها وعناصرها ولغتها واقتصادها واجناسها الادبية ، بل ورؤيتها للعالم ، اما الثقافات التي تدخل دور الاضمحلال فتنكمش في آدابها واقتصادها ، مثلما تنكمش في حركة مجتمعها وافرادها ، وهكذا رأينا ان ادب الرحلة في الثقافة العربية القديمة ينتشر مع انتشار هذه الثقافة ، بل وينتشر في حدود انتشار علومها وآدابها ولغتها وتجارتها هكذا تجول السندباد في بحار الشرق الاقصى ، وابن فضلان في بلاد الصقالبة ، وابن بطوطة في الصين ، لكن ادب الرحلة كاد ينقرض في الثقافة العربية مع اضمحلال هذه الثقافة بل وهزيمتها الى ان عاد للظهور مع بداية

نهضة العرب الحديثة ، وهكذا كانت رحلة رفاعة الطهطاوي الى باريس « تخليص الابريز في تلخيص باريز » والصادرة في كتاب ١٨٣٤ بداية لعودة الحياة لهذا النوع من الادب ، لكن كان لهذه الرحلة ، كما هو معروف ، عكس دلالة الرحلات القديمة في الثقافة العربية فرحلة الطهطاوي كانت من موقع الضعف وليس من موقع القوة ، من موقع الخضوع وانتشار الثقافة الاوروبية وليس من موقع انتشار الثقافة العربية ، لكن لهذه الرحلة ، في حد ذاتها ، دلالة بداية يقظة ونهوض ، فهي كذلك احد دلائل اعادة اكتشاف الذات في الثقافة العربية عبر مقارنة هذه الذات مع الاخر هناك ، مع القوي المسيطر في اوروبا التي صارت منذ ذاك الوقت مثالا يفرض تقليده وضمن هذا السياق الحضاري الجديد سافر كل الرحالة العرب الى اوروبا منذ القرن التاسع عشر الى اليوم .

اذا كانت رحلات العرب الى اوروبا هي رحلة التلميذ الى المعلم ، الضعيف الى القوي ، المادة الاولية الى حيث تصنع وتعاد سلعة ، فان رحلة احمد زكي ١٨٩٣ الى الاندلس تندرج في سياق آخر ، فليس لها دلالة رحلة

القوي ، وليس لها دلالة رحلة الضعيف ، بل لها دلالة رحلة الحنين . لكنها ، ومثلما كانت من اولى الرحلات في هذا النوع ، فقد كانت كذلك من دلائل عودة الروح الى المجتمع العربي ، عودة روح المغامرة و السفر وعيش العالم وفهم الاخر لدى المجتمع العربي عموما ، فالأموات وحدهم الهاجعون ، اما الاحياء فيتجولون ويرحلون في هذا العالم الجميل الفسيح .

سبب آخر يدفعنا لتقديم هذه الرحلة الى جانب كونها ساهمت في وضع اساس رحلة الحنين في الادب العربي ، وربما اساس هذا البكاء الجديد على الاطلال في الادب العربي الحديث ، الا وهو طرافتها بالنسبة للقارىء الاسباني كذلك ، فعين أحمد زكي هي عين عربية ترى اسبانيا منذ مائة عام ، وربما يهم الاسبان ان يعرفوا كيف كانوا منذ مائة عام ، أو كيف نظرت اليهم اعين اخرى آنذاك ، وإحداها عين لايستطيع أحد التغاضي عن خصوصية نظرتها وطرافتها ، عين ليست حيادية وليست طامعة ، ليست قوية ، لكنها في اسبانيا ، وريثة الاندلس ، ليست ذليلة ابدا . عين تومض بالفرح ، مثلما تبرق بالدمعة .

ولد أحمد زكي في مصر عام ١٨٦٦ ، وتوفي عام ١٩٣٤ ، وقد اشتهر بتحقيقاته وتدقيقاته وابحاثه التراثية واللغوية ، مثلما اشتهر بمكتبته الشهيرة « الخزانة الزكية » وقد قام رحالتنا برحلته التي نعيد نشرها هنا الى الاندلس عام ١٨٩٣ وهو في طريق عودته من لندن بعد حضور مؤتمر للمستشرقين الذي عقد آنذاك « ١٨٩٢ » في العاصمة البريطانية ، فهل عرج رحالتنا على الاندلس في طريق عودته من بريطانيا ، ليستمد القوة الروحية والنفسية ، بعد ان تكلم في عاصمة دولة تحتل بلاده ، وامام علماء جعلوا ثقافته موضوعا للدرس والاكتشاف ، تماما مثلما يستكشف رحالة ثقافة متفوقة ، ارض بلاد اسلمها الدهر لضعف الزمن ووهنه ؟

نعيد نشر هذه الرحلة الرائدة الى الاندلس نظرا لطرافتها وقيمتها بالنسبة للعرب والاسبان معا .

م٠خ



نشرت هذه الرحلة ضمن كتاب :

السفر إلى المؤتمر . وهي الرسائل التي كتبها على أوروبا : أحمد زكي رئيس القلم بمجلس النظار ، ومساعد السكرتير العام في الجمعية الجغرافية الخديوية .

«سافروا تصحوا وتغنموا»

«حديث كريم»

إنما الأرض والفضاء كتاب

فاقرأوه معاشر الأذكياء

أ - صبري

بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية

سنة ١٣١١ هـ / ١٨٩٤م الطبعة الثانية

الرسالة السادسة عشرة

وهى الاخيرة من الرسائل المؤتمرية

وداع باريز

وذكر الاندلس والبرتغال

بوجه الاجمال

من غرناطة فى يوم الاثنين المبارك ٥ رجب الفرد سنة ١٣١٠

٢٣ ينايرسنة ٩٣

وداع باريز

قضت نواميس الكون الانسانى ونظامات الوجود العمرانى بان دوام الحال من المحال وانه لابد من الفراق مهما طال التلاق وان لكل اجتماع انقطاعا ولكل اتصال انفصالا تلك سنة الله فى خلقه جيلا فجيلا ولن تجد لسنة الله تبديلا

أطلت المقام فى باريز الى مابعد الميقات الذى كنت ضربته لبارحتها بايام كثيرة فانى كنت كلما عزمت على السفر رأيت وجوب التأجيل لمناظرة بعض الآثار أولشهود أنواع من الاحتفال أوغير ذلك مما يستوقف الراحل ويستغرق الاوقات ويحبس السائر عن عدوه ويخرس الطائر المفصح بشدوه فكم فيها من مسارح

تنضج بها الجوانح ومحاسن يشغل بها عن وكره السانح ومطارح تطرح ذكر الوطن من ذاكرة السائح حتى اعترانى الكلال والملال من كثرة ما رأيت وما سمعت وصرت أترقب الفرص لتيسر الخروج من هذه الدار كما دخلتها بسلام فيسر الله الاسباب وفتح الابواب فودعتها فى منتصف ليلة ١٩ الى ٢٠ نوفمبر سنة ٩٢ ورحلت عن هذه الارجاء المتألقة والروح بها وعين فيها متعلقة ثم سار القطار ينهب الارض نهبا ويقطع الفيافى فدفدا فدفدا ومر على كثير من مدائن فرنسا العامرة مثل تور (Tours) وهى مشهورة باعتدال اللسان الفرنسوى وصفاء اللغة حتى ان أكثر الطالبين لابد لهم من الاقامة فيها شهورا طويلة لترسخ فيهم ملكته التى لاتشوبها أدنى شائبة ومثل انجوليم (Angoulême) المذكورة فى كتب العرب باسم انقلزم ومثل بوردو (Bordeaux) المشهورة بخمورها شهرة تغنى عن وصفها وقد سماها العرب بحسب التسمية اللاتينية برديل وبردال (وبالذال المعجمة فى كلتا اللفظتين)

وكان بودى أن أقف بكل من هذه المدائن الثلاث بضعة أيام ولكن وقتى لم يكن يسمح لى بانالة نفسى هذه الامانى ولم أصل الى تخوم اسبانيا (١) الابعد أن أمضيت فى القطار مدة أربع

(١) وقد ورد اسمها فى كتب العرب اشبانيا وفى كتاب مختصر الدول لابى الفرج اسف

وعشرين ساعة لم تكتحل فيها عيني بإثمد الكرى حتى أجهدني السير وأضناني السرى ولكنني تجددت في القوى حينما شممت عبير الأندلس واستنشقت نفحاته وتمتعت بالنظر الى صافي سمائه وقد ترصعت بالدراري كما هو الشأن في بلادي وأرض مهادي بخلاف ما كنت قد اعتدت عليه في انكلترا وباريز من كدورة الجو وقتمة السماء وتوالي الغيوم وتعاقب الامطار فصرت اسامر بدر الظلام واطارح الكواكب الحديث واشكو اليها مالاقيته في غربتي واطيل النظر اليها حتى لقد كان

يخيل لي ان سمر الشهب في الدجى * وشدت باهدابي اليهن اجفاني

التحسر على الاندلس

وحينئذ شطحت مع تيار الافكار ولكنني مالبثت ان انقبض صدري وعلتني الكآبة وتولاني الانزعاج اذ أحاطت بي جيوش من اللوعة والاسف والحسرة واللهف لانني تفكرت مانا له الاسلام من العز والاقتدار في هاتيك الديار أيام كانت تخفق فوق الاندلس اعلامه وتجول فيه أقوامه ناشرة ألوية الفخار والحضارة رافعة رايات المجد والكرامة أيام كانت المآذن قائمة على أعاليه ورواييه تشق أكباد السحاب ويرتفع منها صوت المؤذن الى عنان السماء فتخشع القلوب وتعنو الوجوه لذكر الحي القيوم أيام كانت المساجد عامرة بجماعات الموحدين القانتين وربوع

العلم زاهرة زاهية بالدارسين والمدرسين أيام كان التمدن العربى باسطا بساطه من اطرافه الى اطرافه والمروءة والشهامة ساريتين فى جدرانه أيام كانت خلافة المغرب تفوق مناظرتها فى المشرق بما احتاطت به من أسباب البذخ والعظمة والعرفان حتى كانت ملوك أوربا تتزلف الى الخلفاء وتلتمس رعايتهم وحمايتهم أيام نبغ العلماء والمخترعون والمكتشفون الذين أفادوا العالم باجمعه ورفعوا كلمة الاسلام وجاؤا باقوم برهان على ان الدين الحنيف يساعد بكلياته وجزئياته على البحث فى اسرار الطبيعة وانه يحض على اقتناء ثمرات المعارف بجميع أنواعها ومطالبها (١)

وقد اشتد بى الوجد والوله حتى عدمت التعبير وغاب عقلى وما أبصرت نفسى الا وانى اندفع بترديد بعض أبيات من القصيدة المشهورة التى نظمها أبو البقاء الرُّندى فى رثاء الاندلس وترجمت نثرا ونظما الى اللغة الالمانية والفرنساوية والاسبانية وغيرها وكنت أكثر من ذكرى هذه الابيات بحسب ورودها على لسانى وانى أوردها الآن بنصها (٢)

(١) وما زلنا الى الآن نقتبس أنوار الهدى من مؤلفاتهم القليلة التى استبقتها الصدفة فنجت من التبديد والتمزيق وسأشير الى بعضها فى الرحلة

(٢) ان العلامة الفرنساوى جرنجره دبلاجرنج (rangeret de la Grange) طبع فى باريس سنة ١٨٢٣ كتابا سماه منتخب الازهار فى منتخ

لكل شيء اذا ماتم نقصان * فلا يغر بطيب العيش انسان
هي الامور كما شاهدتها دول * من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد * ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة * اذا نبت مشرفيات وخرصان
وينتضي كل سيف للفناء ولو * كان ابن ذي يزن والغمد غمدان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن * وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ماشاده (١) شداد في ارم * وأين ماساسه في الفرس ساسان
وأين ماحازه قارون من ذهب * وأين عاد وشداد وقحطان
أتى على الكل أمر لامرد له * حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

الاشعار وأذكى الرياحين من أسنى الدواوين» جمع فيه كثيرا من مستجاد شعر المتنبي بشرح الواحدي له وشعر ابن الفارض وشرحه والصفدي ومن فتوح الشام للواقدي وجملة شعراء متعددين ثم ترجم ذلك كله الى الفرنساوية وعلق عليه كثيرا من الحواشي الادبية والانتقادية واورد في جملتها قصيدة أبي البقاء هذه نقلا عن نسخة من نفح الطيب في مكتبة باريس وهي مترجمة بغاية الدقة والضبط ولما كان الناقل أخطأ في نقل بعض الكلمات في ترتب على ذلك ان ترجمة بعض الابيات جاءت مختلة فأحببت التنبيه على هذه الابيات هنا لاكمال الفائدة

(١) نقلها العلامة لاجرانج المذكور هكذا (سادة شداد) بالسين المهملة وترجم عا معناه السيادة ولا معنى لذلك اذ المقصود المباني والآثار التي أقامها شداد في إرم المشهورة بمبانيها الفاخرة

وصار ما كان من ملك ومن ملك * كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله * وأم كسرى فما آواه ايوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب * يوما ولا ملك الدنيا سليمان
فجائع الدهر أنواع منوعة * وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها * وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له * هوى له أحد وانهد ثهلان
أصابها العين في الاسلام فارتزأت(۱) * حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية * وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم * من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه * ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما * عسى البقاء اذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف * كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية * قد أقفرت ولها(۲) بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما * فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة * حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلا وله في الدهر موعظة * ان كنت في سنة فالدهر يقظان

---

(۱) أوردها العلامة المذكور (فامتحنت) وهي بالبناء للمجهول والمعنى واحد
(۲) . . . . (وبها بالكفر الخ) وهي غلط في الطبع

وماشياً مرحاً يلهيه موطنه * أبعد حمص لعز(١) المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ماتقدمها * ومالها مع طول الدهر نسيان
يارا كبين عتاق الخيل ضامرة * كأنها في مجال السبق(٢) عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة * كأنها في ظلام(٣) النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة * لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس * فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم * اسرى وقتلى فما يهتز انسان
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم * وأنتم ياعباد الله اخوان
ألا نفوس أبيات لها همم * أما على الخير انصار واعوان
يامن لذلة قوم بعد عزهم * أحال حالهم جور وطغيان
بالامس كانوا ملوكاً في منازلهم * واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلوتراهم حيارى لادليل لهم * عليهم من ثياب الذل ألوان

---

(١) وفى رواية أخرى (تغرا المرء اوطان) وانى استحسن قوله (اعز المرء) اى الاندلسى لانه صار لاوطن له

(٢) استبدل العلامة ديلاجرانج لفظة (السبق) بقوله (السبف) وترجم بهذا المعنى وهو غلط واضح

(٣) وفى رواية اخرى (فى مثار النقع) والمعنى صحيح لكن الظلام انسب لظهور النيران فيه بوضوح اكثر

ولو رأيت بكاهم حين (١) يبعهم * لهالك الامر واستهوتك أحزان

يارب أم وطفل حيل (٢) بينهما * كما تفرق أرواح وأبدان

.... * ....

.... * ....

لمثل هذا يذوب القلب من كمد * ان كان في القلب اسلام وايمان

استمرار الحيرة

وصرت أردد هذه الابيات وغيرها حتى وصلت مدينة ايرون Irun أول تخوم اسبانيا من الشمال فنزلت بها وقد انتصف الليل وما صدقت الوصول الى الفندق حتى اضطجعت على الفراش طلبا للراحة الضرورية ولبثت به على خلاف عادتي الى أن قرب الظهر

---

(١) اورد العلامة ديلاجرانج (عند بيعهم) وهو واحد غير انه قدم هذا البيت على الذي قبله وهو غلط يدل عليه سياق الكلام وانسجام المعاني

(٢) اورد العلامة ديلاجرانج الشطر الاول من هذا البيت هكذا (يارب ام وطفل جبل بينهما) وترجم عن معناه (يا للهول يلزم ان جبلا يوضع بين الام واولادها وان الارواح تفصل عن الاجساد) وهو غلط مبين لانه تصور ان رب بضم الراء هي رب بفتحها واللفظة الثانية من أسماء الله تعالى وأما الاولى بمعنى ربة وربما او رب من حروف الجر للتقليل في المشهور والتكثير وقيل بل انهما يستفادان من سياق الكلام ثم انه أخطأ في قراءة (حيل) فوزع النقطتين على الحرفين فرأى (جبل) وهي قراءة يترتب عليها هدم بيت الشعر وكان الرجل عارفا ببحوره وأوزانه كما يستدل عليه من شرحه للقصائد التي في كتابه

ولم أستيقظ الا على جلبة الاطفال وصياحهم فى لعبهم ولهوهم بترنيمات تكاد تنطبق على وزان هذين البيتين

شرد النوم عن جفونك وانظر * حكمة توقظ النفوس النياما
فحرام على امرئ لم يشاهد * حكمة الله ان يذوق المناما

فقمت فزعا مرعوبا وأنا أقول «أين هذه الحكمة ولماذا ورد هذا البيت على خاطرى مع ان القصائد التى من بحره كثيرة» ثم تذكرت ان السبب فى ذلك ما كنت فيه بالامس فهرعت الى الخروج لانظار البلد ومافيه وما حواليه فرأيت المبانى والنوافذ والاسطحة تشبه ما عهدته طول عمرى فى مصر وكذلك الحارات والزقائق وغيرها

معرفة النحو لا تغنى

وقد كنت وأنا فى باريز درست نحو اللغة الاسبانية للاستعانة على مخاطبة القوم ومبادلة أفكارى معهم مباشرة ولكننى لما حضرت ايرون وتكلمت مع أصحاب الفندق وخصوصا مع الدليل تحقق لى ان درس النحو شئ ومعرفة اللسان شئ آخر وحينئذ زال ما كنت أجده من الغرابة من كون بعض الناس يقضون سنين طويلة مديدة فى درس النحو بجميع فروعه ثم هم لا يعرفون من العربية سوى هذه الآلة

اشتباك الحيرة والهوس بالوطن

وأقول الحق انى لما رأيت اضطرارى لمخاطبة القوم ساعة بالايطالية وتارة بالفرنساوية وغالبا باللغة الاشارية التى يفهمها

جميع أصناف بنى آدم تراخت عزيمتى وثبطت همتى وهممت بالرجوع من حيث أتيت وخصوصا لما كان يقوم بفكرى من ان أهل الاندلس الآن أشد أهل الارض تعصبا على المسلمين وكراهة للعرب وجفوة للغريب مع ماهم فيه من الهرج الدائم على حكومتهم مما كنت قرأته حديثا فى التلغرافات وانا فى باريز فضلا عما رأيته فى كتب السياحات من التشنيع عليهم وتخويف الغريب من الدخول الى ديارهم ولما كان حب البقاء طبيعة فى الانسان وكانت الحياة غالية خصوصا عند وشك الوقوع فى الخطر مع اشتداد الحنين بل الوله بالرجوع الى الوطن بعد طول الغيبة كادت هذه الافكار واضرابها تفوز على ماعندى من الشوق لرؤية هذه البلاد الجميلة وتعهد بقايا العرب فيها فتذكرت حينئذ المثل السائر (من لم يركب الاهوال لم ينل الرغائب) وانشدت على نفسى لاحياء ماتت قوتى قول الشاعر

التغلب على الصعوبة

ان كنت تطلب عزا فادرع تعبا * أو فارض بالذل واختر راحة البدن

فتجددت فى عوامل القوى وانبعثت فى جسمانى روح النشاط وتذكرت انى أكون أول من زار جميع الاندلس من المسلمين والمصريين خصوصا من ابناء هذا الجيل وكتب مارآه فيها وقارن بين حالتيها وفى ذلك فخر عظيم

ومن يجد الطريق الى المعالى * فلا يذر المطى بلا سنام

ولذلك توكلت على الله وقمت من ايرون الى فنترابيا (Fontarabia) الى سان سيبستيان (SanSebastian) الى بنبلونة (Pamplona) وتسمى فى قليل من كتابات العرب بعقلونة وقد حكمها المسلمون اثنتى عشرة سنة فقط وهى أنظف مدينة رأيتها وجميع شوارعها وحاراتها وأزقتها اتضاء بالنور الكهربائى

زيارة بعض المدن

ثم قمت الى سرقسطة Zoragoza (Saragosse) وقد

نزلنا بها بأنى المقام ثلاثة * فطابت لنا حتى أقمنا بها عشرا

(مدينة سرقسطة) (والجمعية العلمية)

فاتى القيت بها من كرم أهلها وحسن مجاملتهم وكريم توددهم ما كاد ينسينى الاخوان واطلعت فيها على كتب عربية نادرة جدا وتعلمت فيها الكلام الاسبانى

ثم ان جمعية العلوم الشرعية والادبية Academia Juridico-literaria عينتنى عضوا افتخاريا بها واحتفلت بى احتفالا فائقا وعقدت جلسة مخصوصة لاستقبالى بغاية التكريم والترحيب فخجلت ان أدخل بينهم خالى اليدين لا أقدم لهم موضوعا فى هذه الحفلة المهمة وألهمنى الله ان أكتب لهم خطبة باللغة الفرنساوية على مدنيتهم فى أيام العرب فاستعنت ببعض الكتب القليلة التى وجدتها عند المشتغلين بالعربية من اساتذتها وببعض ما عن بالخاطر وقدمت لهم

خطبة فى ١٥ صحيفة من الورق الكبير المعروف بالفولسكاب المستعمل فى الدواوين وقد راقت لديهم حتى طنطنت الجرائد بها وذكرت هذا الاحتفال بألفاظ التبجيل والاجلال (١) وترجم كثير منها خطبتى الى اللغة الاسبانية على ماعلمته بعد قيامى من سرقسطة وان الجمعية شرعت فى طبعها فى مجموعتها وقد أتحفنى أكثر المؤلفين والعلماء بكتب كثيرة من تآليفهم وخلاصة القول ان هذا اليوم كان من أسعد أوقاتى وانى أحمد الله على هذا التوفيق الذى مكننى من تشريف اسم بلادى وقد أجابوا على خطبتى بالاسبانية والفرنساوية والعربية والطاليانية

والسبب فى ذلك انه اتفق فى بعض الأيام انعقاد جلسة الجمعية الشهرية فدعانى حضرة رئيسها الافتخارى وهو العلامة بابلو خيل D. Pablo Gil مقدم الاساتذة فى المدرسة العالية للفلسفة والآداب لان أزورها فتوجهت بصحبته وأجلسنى عن يمينه وبعد ان تمت أعمال الجمعية قدمنى اليها ثم دعانى لان أخطب عليهم بشئ مما يفتح الله به علىّ واذ لم يكن لى سابقة علم بهذا الامر وقفت فيهم وحييتهم بالعربية ليهدأ روعى وأستجمع أفكارى ثم خاطبتهم بالفرنساوية بكلام طويل ولما جلست طلبوا منى -

---

(١) أرسلت فى ذلك الوقت نسخا من هذه الجرائد الى العاصمة لبعض ا . . .

أتكلم بالطليانية فنعلت وحينئذ قام الرئيس الاصيل وطلب من الجمعية تعيينى عضوا افتخاريا بها فاجابت بالاجماع ثم عينوا جلسة غير اعتيادية لاستقبالى وحينئذ أشار على الرئيس الافتخارى بان أشكر الجمعية باللغة الاسبانية فامتثلت مع قلة البضاعة وكنت حينما لا أجد اللفظ المطلوب أضع مكانه كلمة طليانية أوفرنسوية ولوشئت ترجمة ماذكرته الجرائد عن هذا الاحتفال لاستغرق رسالة أكبر من هذه الرسالة

فأما الخطبة التى أجاب بها بالاسبانية الاستاذ المتضلع العلامة خوليان ريبيرا D. Julian Ribera فكانت كلها دررا وغررا تشهد بمزيد اطلاعه على العلاقات العلمية الادبية التى كانت بين المشارقة وخصوصا المصريين وبين أهل الاندلس وسأورد ترجمتها فى فرصة أخرى ويحق لى أن أورد هنا الخطبة العربية التى ألقاها أثناء الاحتفال أحد أعضاء الجمعية وهو الدون سان پيو D. San Pio الذى تلقيت عليه اللغة الاسبانية وها هى بنصها الفائق

« بالنيابة عن جميع اخوانى سلام عليك يا أيها العلامة المصرى »
« أحمد زكى أفندى   بودى أن ألقى الآن خطبة ولكنى مثل »
« أيوب قد ازدحمت على الافكار وقد دعانى اخوانى أن أقول شيأ »

« بلغتك الفصحى فأقتصر على ايراد بعض جمل من الكتاب المقدس »
« يخرجك الرب الى مصر في سفن   واذ كرم الاقينه في هذه »
« المدينة   والقادر الكافي يبارك لك في السفر والاقامة   والسلام »

الغة الاعجمية الاندلسية

وقد اطلعت في مكتبة الدون بابلو خيل المذكور على كتب عربية كثيرة وأغلبها باللغة التي يسمونها الجميادو (Aljamiado) وذلك لان العرب لما انقرضت دولتهم بالاندلس وبقي بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم نسوا أو ألزموا باهمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية أي الاسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وقد رأيت في سرقسطة ومدريد عددا عظيما من هذه الكتب في أنواع العلوم النقلية والعقلية ورأيت كثيرا من المصاحف الشريفة مكتوبة بهذه اللغة ترجمها الى الاسبانية بقايا الاعراب المسلمين وهذه اللغة تعرف بالأجميادو) ووجه هذه التسمية ان العرب يسمون كل ما ليس بعربي أعجميا وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أي الاسبانية باسم (الاعجمية) ثم انتقلت هذه اللفظة الى اللغة الاسبانية بغير حرف العين لعدم وجود ما يقابله في اللغات الافرنكية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (ألاجاميا) ولما كان أهل اسبانيا يقلبون أغلب الجيمات خاآت كاسنبينه قالوا (ألاخاميا) أو (ألخميا) ورسموها بحروفهم هكذا بعد ان

سكنوا حركة اللام (Aljamia) وعلامة النسبة عندهم do توضع فى آخر الكلمة فلذلك قالوا (Aljamiado) اى «الاعجمى»

تحريف الكلمات العربية

واليك الشواهد على قلبهم الجيم خاء فانهم يقولون فى الجام «الفاخى» وفى علم الجبر «الخبرا» وفى الجص «الخيذ» وفى الجب بمعنى الصهريج والجابية « الخيى » وفى الحاجة بمعنى أمتعة البيت «الهاخا» وفى الجعبة «الخابا» وفى الجفنة « الخفنا » وفى الجرس «الخرذ » وفى البرتقال «نارنخا » من قول العرب نارنج وفى محل سجن النصارى عند عرب الاندلس « ساخينا» من قول العرب سجن وفى الترنجة « ترنخا» وفى الجوهر « الخوفر » وفى الجبة « الخوبا » وفى المنجنيق « المنخنيكى » وللجفنة « خيفا » وتاريخ الهجرة « هخيرا » ولخنزير الجبل أو الحلوف «خبلى» من قول العرب جبلى * هذه بعض ألفاظ علقتها أثناء تلقى اللغة حتى انى لاحظت دوران هذا الحرف فى غالب كلماتهم الافرنجية التى يكون فيها شين أو جيم أو سين بحيث لو سمعهم رجل من أهل المزاح لاستنبح من القارئ السماح وقال ان لغة القوم تدور على حرف الخاء

ولقد سمعتهم فى بعض الاحيان يقولون الخثيرا (Aljecira) فسألت عن ذلك فأعلمونى بانها الجزيرة الخضراء وحينئذ تشوفت لان أعرف

كيف يسمون بلاد الجزائر فان الفرنساوية يقولون الجيرى (Algérie) والطليانية الجريا (Algeria) ولكنى حمدت الله حينما رأيتهم قد ذابوا فيها وضع الحروف فجعلوا الراء مكان اللام وقالوا أرخابا (Argelia) ولم يقولوا غير ذلك . . .

وقد لاحظت بعض ألفاظ تنافى هذه القاعدة فيقولون فى الخزانة « الانينا » بمعنى الخزانة المنقورة فى حائط البيت وفى الخروع « تشرفا » وفى طير الخطاف « فاتكا » وفى المسجد « مسكيتا » ومنها أول الفرنساوية موسكى (Mosquée) وفى الخراز « المقرز » بياء ممالة وفى المخدة « الموهادا » وفى تصغيرها « الموهاديدا » وفى النخاع « الموكاني » من قول العرب المخ وفى الخبازى « الهبازى » وفى البطيخة « البوديجا والبوديكا وباديها وباديا » وفى الخرشوف « الكتشوفا والكرتشوفا » وفى البخور « البافور » وفى الخروب « الجروبا » وفى الخزامى « الهوثيما » وفى المخزن « المانن » وهو اللفظ الشائع ويقولون فيه أيضا « المجاثن والمارثن ومجاثن » (ومنها انتقلت الى كافة اللغات الافرنكية بهذه الصورة ثم ان أهل مصر نقلوها عنهم وتناسوا أصلها فقالوا « مغازة » للمخزن الكبير) والصخرة بمعنى العونة « اذوفرا » والزرنيخ « اذرنيقى » بياء بين ممالتين والرخ فى لعب الشطرنج « روكى » وفى السجن « كسيكى » بياء بين ممالتين وفى الخز أى الحرير « التشمز » وفى الخياط « الفياب » هذا بعض مالاحظته وألم فى الرحلة بشئ كثير من قواعد التحريف عندهم فهلا من المستغرب بعد ذلك انهم يقولون ان كلام العرب كله يشبه هذه الاصوات « خبط خبط خبط »

وقد زرت جميع آثار سرقسطة العربية وغير العربية وصعدت الى قمة البرج المائل الذى يشبه برج كنيسة بيشة وهو من صنع الاعراب المرتدين وقد شرع القوم فى تقويض دعائمه خوفا من سقوطه ثم خرجت منها شاكرا أفضال أهلها مرددا ثنائى عليهم وعلى أخلاقهم الزكية

تجول فى بعض المدن

وزرت قسطجون (Castejon) وميرندة (Miranda) ثم برغش (Burgos) وكنائسها المشهورة وقد رأيت فى احداها لواء فى غاية الابداع والجمال أخذه الاسبانيون من العرب فى واقعة العقاب التى سأذكر عنها شيأ يسيرا فى هذه الرحلة ثم زرت آبلة Avila ثم مدريد Madrid (وتسمى فى كتب العرب القديمة مجريط) (١) وقد رأيت جميع ما فيها من المتاحف والمعارض

(مدريد ومقابلة سفير الدولة العلية)

(١) مجريط بفتح الميم كما ضبطه ياقوت فى معجم البلدان وقد عقد العلامة أحمد فارس المشهور فصلا فى كتاب «الجاسوس على القاموس» أشار فيه الى بعض انتقادات جغرافية على الفيروزابادى بمناسبة ذكره لبعض بلدان الاندلس فى قاموسه ولكن وقع صاحب الجاسوس نفسه فى وهم ارى من الواجب اصلاحه فى هذا المقام وبيان ذلك ان المجد ذكر بلدا اسمه النمرة وقال انه من عمل ماردة فجاء صاحب الجاسوس (صحيفة ٣٠) معقبا هذه العبارة بالتفسير قائلا (أى مدريد) وأقول ان ماردة Merida بلد ومدريد بلد آخر فماردة فى الجنوب الغربى بقرب بطليوس Badajos على تخوم البرتقال ومدريد فى الوسط وماردة كانت بلدا مشهورا جدا فى أيام العرب ولا يزال فيه الى الآن آثار جليلة تشهد بفخامته بخلاف مدريد فانها معدة العرب بمجريط وكانت فى أيامهم عبارة عن حصن ليس الا

ولاقيت علماءها وكبراءها ووزراءها واجتمعت بصاحب العطوفة طرخان بك سفير الدولة العلية الذى كان واليا على جملة ولايات مهمة من قبل مولانا الخليفة الاعظم أدام الله نصره ورفع كلمته وقد رأيت منه رجلا عالما بالسياسة والقوانين والنظامات وفيه من الوطنية وحب الاسلام مالم أجده فى غيره الى الآن ويسرنى أن أقول ان له مقاما كبيرا فى نفوس كبراء اسبانيا والاسرة المالكة بأسرها وله تمام الاطلاع على اللغة التركية والفارسية واليونانية والفرنساوية والاسبانية وله المام عظيم بالالمانية والارمنية وبعض العربية وانى أتمنى من صميم فؤادى ان يكون جميع نواب الدولة العلية أيدها الله فى جميع الممالك الاوروبية على شاكلته فانما تعلو الدول بنوابها وتعرف قيمتها بمندوبيها وقد أكثرت فى مدريد من زيارة المعرض الاوربى الاسبانى الذى أقيم احتفالا بمهرجان كرستوف كولمب وذلك لانى رأيت فيه كثيرا من الآثار العربية الاندلسية التى تبعث فى النفس نفارا وفى القلب أحزانا ورأيت لواء عربيا يشبه لواه برغش تمام المشابهة وبجانبه لواء آخر مما أخذه الاسبانيون من العرب وقد رأيت فى القسم المخصص للطوبجية المدافع التى سبق الى اختراعها أهل غرناطة لصد عدوهم عنهم ورأيت غير ذلك مما لا تمكن الاحاطة به الآن وكنت أكثر من

زيارة التياترات فى كل ليلة لاتقان اللغة ولانها فى مدريد مدرسة حقيقية لاخلاق القوم وعاداتهم حتى انى أثناء التشخيص كنت أتصور نفسى فى بعض الشوارع أوفى احدى القرى ثم زرت طليطلة Tolède (١) فاذاهى مدينة عربية محضة لم يعتورها الى الآن أدنى تغيير ولاأتذكر أن مدينة فى مصر حفظت هذا الشكل العربى المعهود كما بقى فيها الى الآن مع توالى الازمان وتبدل الاحوال فلا تزال شوارعها وأزقتها عوج أى متعرجة ملتوية ملتفة صاعدة نازلة حتى يخالها الانسان أشبه شئ بتلك الحشرة المعروفة بام أربعة وأربعين وقدرأيت فيها من آثار العرب ماينطق بفضلهم و يخرس كل متعصب عليهم

طليطلة

ثم رجعت الى مدريد وتفرجت فيها ثلاث مرات على مقاتلة الاثوار المعروفة عند الفرنساوية باسم Course des Taureaux و Combat des Taureaux وعندالاسبانية باسم Corrida de los Toros وقد عرفت جميع تفاصيلها

(١) تسمى عندالعرب مدينة الاملاك أى الملوك لكون اللاتينيين كانوا يسمونها بذلك أيضا (Urbs Regia) وكانت تسمى عند الرومانيين كذلك (Toletuın) و بالتصغير (Toletula) ومنه الاسم العربى طليطلة وقد ورد اسمها فى قليل من كتابات العرب توليطُه مثل التسمية الاسبانية ويقول مؤرخو العرب ان معنى توليطُه بلسان قيصر «انت فارح»

وقوانينها وشهدت غرام الاسبانيين رجالا ونساءها الى الدرجة التى لايكاد يتصورها العقل بحيث ان المقاتلين يعتبرون من أهم رجالهم ومن أحب الناس الى الامة التى تجل ذكرهم الى حد يحسدهم عليه سراوات القوم وأماثل الاماجد وانى أؤخر شرح ذلك الى فرصة أخرى لما يستوجبه من زيادة البيان مع مافيه من الطلاوة والمباحث الرائقة وانما أقول الآن ان عرب الاندلس كانوا مولعين بهذا القتال أيضا وكانوا يضارعون الاسبانيين وربما كانوا يفوقونهم

دخول مملكة البرتقال وذكر لشبونة وشنترة

وبعد أن أطلت الاقامة فى مدريد ركبت قطار الاكسبريس الدولى متوجها الى بلاد البرتقال (Portugal) (١) وزرت عاصمتها المعروفة بلسبون (Lisboa) Lisbonne (٢) وقد بدأت بزيارة حضرة قنصل جنرال الدولة العلية وويس قنصلها ورأيت آثارها العربية وغير العربية وفى ثانى يوم من وصولى وردت لى تذاكر من الجمعية الجغرافية الملوكية بالتحية والسلام وبوضع مكتبتها ومتاحفها ومعروضاتها وغرفة السلاح والنشان والبليارد و وغيرذلك تحت تصرفى فزرتهم وشكرتهم واستفدت

---

(١) هذا هو اسمها فى كتب العرب لابرتقال أو بورتكال أو بغير واو فيهما

(٢) يذكرها العرب باسم اشبونة واشبونة والاشبونة

كثيرا من لقائهم وقد زرت المكتبة الاهلية ومدرسة المهندسخانة ومعرض التاريخ الطبيعي وكل ماقدرت عليه ورأيت من أهلها حفاوة تخلد اهم الثناء على صفحات الفؤاد ثم زرت مدينة شنتره Cintra ورأيت حصون العرب على قمم الجبال وبجانب بعضها مسجد باقية آثاره للآن وعلى مقربة منه قبر دفن فيه القوم عظاما وجدوها ولم يعلموا انها للمسلمين أو للنصارى فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب وصورة الهلال ثم رجعت الى لشبونة وزرت فيها القسم الذى كانت تسكنه العرب وكان يعرف عندهم باسم الحمة « بتشديد الميم » ويسميه البرتقاليون الآن من باب التحريف « الفاما »

التشرف بمقابلة جلالة الملك

وقد تشرفت بمقابلة جلالة الملك فأكرم وفادتى وأحسن لقائى ولبثت مع جلالته مدة طويلة ثم خرجت شاكرا جليل رعايته وهذه المدينة لها موقع من أجمل مواقع الدنيا يشبه أو يفوق موقع جنوة ونابولى ويقرب من القسطنطينية على ماسمعت ومنظرها يشبه المدائن الشرقية

الغسول المدمس بأوروبا

ومما يحسن ذكره من باب الفكاهة انى خرجت ذات يوم فى بكرة النهار لاتفرج على حركة المدينة فى مبدئها فمن جملة مارأيت فيها كثيرا من النساء يسارعن فى حركاتهن وهن حفاة الاقدام وعلى وسطهن حزام كبير بارز بروزا شديدا عن بقية

الجسم بخلاف سائر الافرنجيات فانهن يبذلن غاية جهدهن فى تنحيل الخصر وترفيعه ومما امتاز به هؤلاء النساء فى البرتقال انهن يضعن فى أعناقهن قيطانا يتدلى الى حد ثنيات البطن وينتهى بصليب كبير من النحاس وفوق رؤسهن قطعة من القماش ملتفة على بعضها مثل الطواية و يحملن عليها شيأ شبيها بطست نحاسى مفرطح جدرانه مرتفعة قليلا ورأيت احداهن تصيح بكلام لاأفهمه فتشوفت لاستوقفها وأعرف مامعها فسألت الدليل ذلك ولكنها لما نظرت الى حالتنا وهيأتنا توسمت أننا ممن لايشترى مامعها فهمت بمغادرتنا فأظهرت لها قطعة من الورق فيها نحو قرش صاغ فوقفت وأخذتها ثم فرجتنى على مافى الطست واذا به الفول المدمس ففرحت به كثيرا ووطنت نفسى على أكلة مصرية فى بلاد أوروبا ثم استفهمت عن الاسم فاذا هو (Fava Rica) أى الفول الغنى ولما رجعت الفندق أوصيت صاحبه أن يستحضر لى فى صباح اليوم الثانى مقدارا من هذا الفول الغنى وقد كان غير أنى أردت أن تكون الاكلة مصرية محضة وعلى الاسلوب المتبع عند عموم المصريين فلبثت فى غرفة النوم وأقفلتها إقفالا محكما بعد أن استحضرت البصل حتى لاأكون مثل بنى اسرائيل حينما خرجوا من مصر ولم يجدوا البصل فى التيه فتأسفوا عليه

وتلهفوا ثم انى تمتعت بهذا الفطور والحق يقال أكثر من جميع أيام سياحتى فى أوروبا

مدينتى قلمرية وبرتقال

ثم قمت من الاشبونة الى مدينة كويمبرا Coïmbra المعروفة فى كتب العرب باسم قلمرية وهى الآن دار العلم ومحط المعارف فى بلاد البرتقال وقد رأيت مدارسها الجامعة ومتاحفها وبستان النبات البديع فيها و بعد ان طفت على معظم آثارها قمت الى مدينة بورتو (Porto) واسمها فى كتب العرب برتقال وبها يسمى هذا القطر برتقال كما نقول نحن الآن طرابلس وحاضرتها طرابلس وتونس وحاضرتها تونس وكما نقول بنى سويف وبندرها بنى سويف والفيوم وبندرها الفيوم والمنيا وبندرها المنيا وهكذا فى سيوط وقنا وكما كان الشان فى القليوبية وجرجا والمنوفية قبل أن ينتقل مركز المديرية الى بنها وسوهاج (المعروفة عند العرب بسوهاى) وشبين الكوم وما اورد فى الرحلة نصوصا عربية معتبرة تكاد تكون مجهولة للدلالة على صحة هذا الاسم (برتقال)

رأيت فى مدينة البرتقال هذه آثارا كثيرة ولكن العرب لم يخلفوا فيها شيأ يذكر لانهم كانوا يجيئونها فاتحين ثم يجوزونها الى غيرها من البلاد ولم ترسخ فيها قدمهم غير انى رأيت دار البورصة فيها وهى من الفخامة والجلالة بمكان قد تألف التجار على انشائها

على الطراز العربى ونقشوا أكبر بهو فيها بحسب الاسلوب العربى وزينوه بالزخارف وكتبوا فى ضمن رسومها البديعة أشعارا عربية اوردها فى الرحلة وفى جميع الطرازات هذه العبارة ﴿عز لالانا السلطانة مريم ٢﴾ يريدون عز لمولاتنا السلطانة مريم الثانية

إشكال على الفول المدمس

وقد عن لى وأنا فى هذه المدينة أن أمتع نفسى بأكلة ثانية من الفول الغنى فأوصيت صاحب الفندق أن يستحضر لى جانبا من هذا الطعام اللذيذ حتى أتغدى به فى وقت الظهر وأوصيته أيضا باستحضار الزبد والبصل فنظر الىّ نظر المستغرب وقال كيف يمكن الغداء بالفول الغنى والبصل والزبد فقاطعته وقلت له هذه ارادتى وما عليك الا الاجابة فامتثل غير قادر على اخفاء زيادة الاستغراب ثم توجهت لزيارة الآثار وغيرذلك حتى جاء وقت الظهر فأسرعت الى الفندق وأنا أتلذذ مقدما بأكلة الفول الغنى التى أعددت نفسى لها فى هذا اليوم السعيد حتى انى لم أتناول شيأ من الزاد فى الصباح وقد صعدت فى الحال الى غرفة نومى فوجدت صينية عليها شئ كثير من .... من .... من الخروب فدققت الجرس بعنف وشدة لكثرة مااعترانى من الغيظ والحنق فحضر الخادم فقلت له ماهذا الذى فعلت أيديكم فقال انما أجبنا أمرك وأحضرنا الفول الغنى فكررت الاستفهام فقال لى هذا

هو الفول الغنى بعينه فنزلت لصاحب الفندق وباحثته فى هذا الموضوع وأعلمته بمقصودى الذى رأيتـه بكل انشراح فى مدينة الاشبونة فأدرك السر وقال لى «ياسيدى أهل بورتو يسمون الخروب فولا غنيا ولا يعرفون ذلك الصنف الموجود فى أشبونة بل انهـم يتهكمون على الاشبونيين لكونهم يسمون الفول المصنوع بهذه الكيفية فولا غنيا مع انه هو الخروب للمشابهة بين قرن الخروب وقرن الفول ولما كان فى الخروب ميزة على الفول دعوه بالفول الغنى واهم الحق(١) وهذا مادعانى للاستغراب حينما طلبت منى فى الصباح أن أحضر لك غداءك من الفول الغنى مع الزبد والبصل» فانشرحت من هذا الشرح مع انى انقبضت للحرمان من أكلتى المصرية والاضطرار للأكل على المائدة العمومية بالطريقة الافرنكية ولكن هى السياحة يرى فيها الانسان مايسوء وما يسر

ثم خرجت منها قاصداً شلمنقة (٢) Salamanca من بلاد اسبانيا ولم أتعرض لتعلم اللغة البرتقالية خوفا من الاختلاط ولكنى لغة البرتغال والتعريف فيها

---

(١) ليتنبه القارئ الى أنه منهم فلذلك هو يصوب رأيهم

(٢) هذا هو اسمها الحقيق فى كتب الجغرافية العربية القديمة وابن الاثير فى حوادث سنة ١٤٠ فى الجزء الخامس وقد وهم صاحب دائرة المعارف حيث سماها سلمنقة بالسين المهملة ثم خلط بينها وبين بلد أخرى اسمها طلمنكة فقال انه اسمها فى بعض كتابات العرب والصواب غير ذلك فان طلمنكة Talamanca بليدة فى ولاية مدريد فى وسط الاندلس كانت من أعمال طليطلة فى أيام العرب وأما شلمنقة فهى فى الشمال من ولاية جليقية التى قد يسميها العرب غليسية Galicie

لاحظت كثرة تردد الفاء والشين والراء فيها فمثال الفاء الخروب يسمونه الفروب والبحيرة يسمونها البفيرة والصهريج يسمونه زفريش ويسمون نوعا من الاغطية والفراء يعرف عند العرب بالحنبل بقولهم «الفامار» وهذه الكلمة الحديثة الآن مأخوذة من الكلمة البرتقالية المهجورة المحرفة عن العربية مباشرة وهي «ألفمبر» ويسمون الخس «ألفس» والهدية «الفدية» والحرمل وهو السذاب البري «الفرما» وفي الحلاوة «الفلووا» ويقولون في الحمة «الفاما» والخياط يسمونه «الفيات» وأمثال ذلك كثيرة لا أطيل بها الآن وأما الشين فان معظم السينات التي في اللغات الافرنجية يقلبونها شينا ولعل ذلك هو السبب في ان العرب نطقوا باسماء البلدان التي فيها سين بالشين والامثلة كثيرة يعرفها من له أقل اطلاع على جغرافية هذه البلاد في كتب العرب وأما الراء فهي كثيرة جدا خصوصا مع الشين حتى تكاد لغتهم بسببها تشبه اللغة النمساوية ولكن الخاء معدومة بالكلية

ذكر النقود باسبانيا والبرتقال

وهنا أذكر أمرا غريبا وهو اني لما كنت في سرقسطة توجهت في صباح يوم وصولي الى أجمل دكان للمزين فيها وبعد ان حلقت ذقني وأصلحت شعر رأسي وضمخته بانواع الخلوق

المستعملة عندهم سألت الرجل عن الاجرة فقال لى ٣ ريالات فبهت فى قلبى وأسفت على مجيئى اليه ولكننى تجلدت وأظهرت (مثل الكثيرين من الناس) تعارف الجاهل بعكس أهل البديع الذين يظهرون تجاهل العارف ثم قلت وهو كذلك ودفعت اليه ورقة قيمتها ٢٥ فرنكا فرد لى ٤٢ فرنكا وربما فعلت بكل سرور ان الريال عند أهل اسبانيا يساوى جزأ من عشرين منه عند أهل بلادنا بل هو أقل من القرش الصاغ بقليل ولكننى حينما جئت الى بلاد البرتقال ونزلت فى لشبونة اكتريت عربة أوصلتنى الى الفندق ولما نزلت منها سألت ترجمان الفندق عن الاجرة فقال لى ٦٠٠ ريال فقلت فى نفسى هذه هى الطامة الكبرى وكيف أتظاهر الآن بتعارف الجاهل وليس معى ورقة تساوى هذه الثروة الجسيمة ومع ذلك تجلدت وصبرت على مضض الايام وانقيت الله لعله يسهل لى سبيل الخلاص من هذه الورطة فقلت له بصوت أبح « وهو كذلك خذ النقود من صاحب الفندق » وصعدت الى غرفتى أضرب أخماسا لاسداس ولما أصبح الصباح كان أول شئ طلبته هو الحساب فجاءنى بعشرات الآلاف فقلت وأنا خائف واجم وكم يساوى هذا كله من الفرنكات فقيل لى

ان الفرنك ماْئتا ريال فكدت أخر لله ساجدا وصرفت الغلام لاتضرع بالشكر منفردا وقد قاسيت كثيرا من اشتداد الازمة المالية على هذه البلاد حتى انى كدت أصرف الفرنك الصحيح المعتبر بمائتى ريال وبمائة وتسعين وبمائة وثمانين وبمائة وسبعين بل بمائة وستين فى قلمرية وعرفت حينئذ ان هؤلاء القوم يلزمهم عدد كبير لقيمة قليلة

العودة الى الاندلس

ولما توالت هذه الخسائر المالية استخرت الله فى الرجوع الى الاندلس ووصلت شلمنقة ورأيت آثارها ومدارسها فانها فى اسبانيا مثل قلمرية فى البرتقال واكسفورد وكبريج فى انكلترة ورجعت منها الى مدريد فاصابتنى النزلة الوافدة واشتدت على وطأتها حتى كدت أيأس من الحياة لولا مداركة كثير من أصحابى وأصدقائى وعناية الاطباء بشأنى

مقابلة جلالة ملكة الاندلس

وقد كان صاحب السعادة طرخان بك طلب من البطانة الملوكية تشرفى بمقابلة جلالة الملكة وأجيب السؤل ولكن المرض كاد يحول بينى وبين هذا الشرف الاسنى غير ان الله سبحانه وتعالى رأف بى تخفف النازلة عنى وبذلك تيسر لى مقابلة جلالة الملكة فلاطفتنى وتعطفت على كثيرا وتكلمت معى فى اشتات العلوم والاديبات حتى بهرتنى من كثرة اطلاعها ودار الحديث مليا على اللغة العربية وآثار العرب باسبانيا وبغيرها واستطالت المقابلة مدة تنيف على

العشرين دقيقة وكان معي حضرة السيد المفضال والامير الكريم طرخان بك وسأذكر في الرحلة مادار بيننا من الحديث ثم خرجت من بين يديها شاكرا افضالها على هذه المقابلة الجليلة وقد أخبرني كثير من أهل البطانة وخصوصا صاحب العطوفة طرخان بك بانها أكثر من المعتاد بكثير فشكرت الله ثم لبثت بمدريد بدريثما تعافيت قليلا من النزلة الوافدة التي ضربت فيها أطنابها الآن وفتكت بالاهالي فتكا ذريعا فمات بها كثير من الشيوخ وزاد عدد الوفيات بها وبغيرها من الامراض في مدريد حتى بلغ ستا وستين وفاة يوميا وكان معدل عددها قبلا احدى وأربعين في اليوم

ولاجل ذلك أمرني الاطباء بالتوجه الى بعض البلاد الحارة في جنوب الاندلس والعبور منها مباشرة الى مصر متى ظهرت آثار الصحة وعاودتني العافية

اشبيلية

فقمت الى اشبيلية (Sevilla) التي كانت تسمى أيضا بحمص وزرت جميع آثارها ودار القطاء فيها وكنائسها وصعدت الى قمة المنارة الاسلامية الفخيمة البديعة التي كانت بجانب أحد المساجد وكانت مستعملة عند العرب لرصد الافلاك فأصبحت الآن مقر الناقوس وزرت القصر Alcazar الذى أنشأه الاسلاميون فأنساني كل مارأيته من العمائر الجميلة والآثار الجليلة التي رأيتها في

أعظم مدائن أوروبا وقد وقفت فيه متلهفا وكنت كذلك الشاعر الذى قال

قلت يوما لدار قوم تفانوا * أين سكانك العزاز علينا
فاجابت هنا أقاموا قليلا * ثم ساروا ولست أعلم أينا

ومن غريب ما فى اشبيلية ان جميع دورها وقصورها لها فى وسطها فناء فى غاية الاتقان مغروس بزاهر الاشجار ومحفوف بفائق العمدان وفوقه رواق مثل ماهو معروف فى الاسكندرية باسم الحضير وعليه عمدان وحنايا وقواصر مثل التى فى الفناء ولقد تحسنت صحتى باعتلال هوائها حتى صدقت من أنشأ مشببا بها

هواؤها فى جميع الدهر معتدل * طيبا وان حل فصل غير معتدل
ما ان يالى الذى يحتل ساحتها * بالسعد أن لا تحل الشمس بالحمل

ولا غرو فقد اشتهرت باعتدال الهواء وحسن المبانى وهى واقعة على النهر الشهير المعروف بالوادى الكبير Guadalquivir يصعد المد فيه ٧٢ ميلا ثم ينحسر ولذلك قال شاعرهم

شق النسيم عليه جيب قميصه * فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها * هزأ فضم من الحياء ازاره

ولقد صدقت حينما حللت فيها قول بعض واصفيها

ان شرفها غابة بلا أسد * ونهرها نيل بلا تمساح

وهذا الشرف المذكور هو اقليم من أعمالها كائن على تل عال من التراب الاحمر ومسافته ٤٠ ميلا فى مثلها يمشى بها السائر فى ظل التين والزيتون واعلم ان الاسبانيين والافرنج يرسمون اسم هذه البقعة هكذا Axarafe و Aljarafe وهو الآن فى الجغرافية الجديدة لتلك الاقطار عبارة عن البلاد التى فى قسم سان لوكارلامايور أى سان لوكار الكبير San Lucar la Mayor و بعض القرى التابعة لمدينة اشبيلية

ثم خرجت من هذه المدينة الجليلة قاصدا غرناطة (Grenade) Granada وأنا أردد قول الشاعر فيها

ذكرتك ياحمص ذكرى هوى * أمات الحسود وتعنيته
كأنك والشمس عند الغروب * عروس من الحسن مجلوة
غدا النهر عقدك والطود تاجك * والشمس أعلاه ياقوته

وصرت أثناء الطريق أمر على بلاد وقرى كثيرة تذكرنى ماعهدته مدينة غرناطة وقصر الحمراء فى بلاد المشرق وخصوصا المنارات التى كانت قائمة بجانب الجوامع فصارت مجاورة للصوامع وما آذن المساجد التى أصبحت نواقيس للمعابد وصرت أتذكر مجد العرب وعظم دولتهم حتى قدمت الى غرناطة المعروفة قليلا باسم اغرناطة ويسميها العرب دمشق من باب التشبيه واسمها معرب عن الاسبانية ومعناه الرمانة

وصلت هذه المدينة الى مالم تكد تصل اليه مدينة ما فانها حينما استولى الافرنج على معظم بلاد الاندلس انتقلت اليها بقايا المسلمين فصارت المصر المقصود والمعقل الذى تنضوى اليه العساكر والجنود حتى بلغ عدد فرسانها وحدها ٥٠٠٠ ورجالها ٣٥٠٠٠ من غير ضواحيها وأعمالها فقد كانت جيوشها تبلغ بهم ٢٠٠٠٠٠ يخرجون للقتال من أهل غرناطة والبُشرّات Alpujarrat (Alpuxarat) ووادى آش Guadix وقد رأيت أن أختم رسائلى المؤتمرية فى هذه المدينة التى كانت آخر ملاذ للمسلمين

وصلتها بالليل ونزلت فى فندق واشنطون وهو على ما علمت فيما بعد من أهل التحقيق والمعرفة قائم (بالللأسف) على نفس مكان المقبرة الملوكية التى كانت ملوك المغرب تدفن بها ويسميها ابن الخطيب « التربة »

و بعد ان تناولت شيأ من الزاد عجلت بالاضطجاع وحينئذ ذهب عنى الرقاد لهجوم الافكار وتذكر ما وقع بتلك الاعصار والتفكر فى أحوال الدنيا وتقلبها باهلها حتى أثقلنى السهر و برح بى التعب فأغمضت الجفون وما استيقظت الا على تجاوب الاطيار فوق أغصان الاشجار كأنها تقول لى

تنبه فقد شق البهار مغلسا * كمائمه عن نوره الخضل الندى
مداهن تبر فى أنامل فضة * على أذرع مخروطة من زبرجد

فقمت ونظرت الى الرياض وغابات الاشجار وتدفق المياه فقلت لله در الشاعر في وصف مثل هذه المناظر

رياض تعشقها سندس * توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدى ربا * لها نظرة فتنت من نظر
وكل مكان بها جنة * وكل طريق اليها سقر

ولكني تذكرت قول الوزير ابن عبدون الاندلسي ولا غرو فان أقوال الوزراء وزراء الاقوال

يا نفحة الزهر من سرالك وافانى * خلوص ريالك فى انفاس آذار
والارض فى حال قد كاد يحرقها * توقد النور لولا ماؤها الجارى
والطير فى ورق الاشجار شادية * كأنهن قيان خلف استار

ثم طفت بالحمراء Alhambra (١) وقصرها ومساجدها وساحاتها وأطلالها ورسومها وبقاياها التى تذهب بالجنان وتأتى بالجنون فوقفت باهتا حائرا فاقدا اللب والرشاد من هذا الاتقان الذى لم يكن يخطر على قلبى مع ما سمعته عنها من الاوصاف وما شاهدته من غرائب المبانى فى غير هذه الدار حتى اشتد بى الهيام وكنت

أمر على الديار ديار قومى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

---

(١) وهى مدينة ثانية قائمة على قلة الجبل وأما غرناطة فهى فى سفحه

وما حب الديار أهاج وجدى * ولكن حب من سكن الديارا

ثم خرجت منها وأنا أخاطبها بقول الشاعر

وقفت بالحمراء مستعبرا * معتبرا أندب اشتاتا

فقلت يا حمرا ألا فارجعي * قالت وهل يرجع من ماتا

فلم ازل ابكى وابكى بها * هيهات يغنى الدمع هيهاتا

كأنما آثار من قد مضى * نوادب يندبن اموتا

وعند الباب قدموا الى دفتر الزيارات فكتبت هذه العبارة التى املاها الخاطر واليد مرتعشة والفؤاد واجف والعين باكية

أحقا هذه الحمرا أحقا أنني فيها

لله هذه القصور وهذه الدور ولله قوم خلد وافخرهم على مدى العصور

هذى آثارهم الباقية تنطق بعظمتهم الفائقة وتنبه الغفلان الى بقاء

الملك الديان وأن كل من عليها فان وتذكر بنى الانسان بوجوب

التعاون على البر والاحسان والتباعد عن التخاذل فهو الخسران ويرحم الله

عبدا رأى فتذكر ونظر فاعتبر

احمد زكى

يوم الثلاث ٧ رجب الفرد سنة ١٣١٠

(٢٤ يناير سنة ١٨٩٣)

مندوب الحكومة المصرية

فى مؤتمر المستشرقين التاسع بلوندرة

ثم انتقلت من الحمراء وزرت اسوار المدينة وأبراجها وبعض مناراتها وكثيرا من قصور ملوكها ويعلم الله انني ما رأيت في طول سياحاتي شيأ أدق واتقن وأجمل وأكمل مما رأيته في هذه المدينة حتى لقد رأيت ان المقرى لم يقرب من الحقيقة حينما مدح غرناطة اثناء وصفه للاندلس بقوله

هي جنة الدنيا التي * قد أذكرت دار المقامه
لاسيما غرناطة الـ * ـغراء رائقة الوسامه
برواتبها وبمائها * وهوائها النافي الوخامه
ورياضها المهتزة الـ * ـأعطاف من شدو الحمامه
وبمرجها(١) النضر الذي * قد زين الله ارتسامه
وقصورها الزهر التي * يأبى لها الحسن انقسامه

ولقد كانت غرناطة لا يعد لها في داخلها وخارجها بلد من البلدان

---

(١) مرج غرناطة يعرف عند الافرنج بهذا الاسم (La vega) وهو كلمة اسبانية معناها المرج ومن الغرائب ان الدون اعيلاذ (Eguilaz) وهو من أعيان أهلها ومن نبهاء المشتغلين بالآداب والآثار العربية قد أطلعني على صورة اله مصري طولها ٨ سنتيمترات ومنقوشة بالحروف الهيروغليفية وأخبرني ان أحد الفلاحين قد عثر عليها في المرج أثناء الفلاحة وتقليب الارض فنبهته الى وجوب الاعتناء بهذه المسألة وهو الانر البحث لما وراء ذلك من الفوائد التاريخية التي لا تنكر كما علمت ان القوم عثروا بمدينة برشلونة على آثار مصرية كثيرة

ولا يضاهيها فى اتساع عمارتها وطيب قرارتها وطن من الاوطان ولا يأتى على حصر أوصاف جمالها وأصناف جلالها قلم البيان وكانت فى آخر الامر قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها ويقول كتاب العرب ان خارجها لا نظير له فى الدنيا وهو مسيرة ٤٠ ميلا يخترقه نهر شنيل Xenil (Jenil) المشهور وسواه من الانهار الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لا مثيل له بسواها ويعرف عند المؤلفين الاسبانيين بهذا الاسم Aindamar محرفا عن اللفظ العربى

ومازلت اتردد بين هاتيك الديار واجوب تلك المعاهد وأنا أرى فى كل حجر وفى كل جدار آية ناطقة بعظمة هذه الامة ومجدها وقد جرنى ذلك الى ذكر بعض أمور مما يدل على بلوغ أهل الاندلس أرقى ذروة من ذرى النعيم وتأنقهم وترفههم للدرجة التى ليس بعدها مطلب أوغاية

لمع من تأنق الاندلسيين

فمن ذلك ان اعتماد وهى زوجة المعتمد وأم أولاده المعروفة بالرميكية رأت ذات يوم باشبيلية نساء البادية يبعن اللبن وهى رافعات عن سوقهن يخضن الوحل والطين فقالت له اشتهى ان أفعل أنا وجوارى مثل هؤلاء النساء فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد

وصير الجميع طينا فى القصر وجعل لها قربا وحبالا من ابريسم وخرجت هى وجواريها تخوض فى ذلك الطين الثمين وانالت النفس مناها ثم اتفق بعد خلعه انه حصلت بينهما منافرة كما يحصل عادة بين الازواج فقالت له والله مارأيت منك خيرا فقال لها ولا يوم الطين تذكيرا بهذا اليوم الذى أباد فيه من الاموال مالا يعلم مقداره الا الله فاستحيت واعتذرت وسكتت

وقد مدح بعض الشعراء يعقوب أمير المؤمنين بالاندلس بقصيدة فيها ٤٠ بيتا فأعطاه على كل بيت ألف دينار

وكان بعض ملوكهم اذا جاءته رسل من أعدائه يأمر فى الحال باصطناع بركة وحولها آساد وأشجار وازهار كلها من الفضة الخالصة والذهب النضار ترهيبا لهم وايقاعا للرعب فى قلوبهم من غير أن يشافههم بكلمة واحدة فينال من ملوكهم كل مايرتضيه

وقد كان عبد الرحمن بن الحكم أمير الاندلس كثير الميل الى النساء وولع بجارية له اسمها طروب وكان بها كلفا شديدا واتفق انها غضت الطرف عنه ذات يوم وقابلته بالصد والاعراض وانتصرت فى مقصورتها فأرسل يترضاها وهى لاتزداد الا اصرارا على الجفاء حتى أرسل الخصيان يغصبونها على الخروج فغلقت الابواب فى وجوههم فذهبوا الى الخليفة يستأذنونه فى اقتلاع الباب فأمرهم

بان يسبدوه بيدر من الدنانير يرصونها عليه رصا ثم جاء بعد ذلك يترضاها بنفسه ويعتذر اليها ففتحت الباب وانهالت عليها الاموال فقال لها كل هـذا المال لك دون سوالك ثم أعطاها حلية قيمتها مائة ألف دينار فقيل له ان مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك فقال ان لابسه أنفس منه خطرا وأرفع قدرا وأكرم جوهرا وأشرف عنصرا وفيها يقول

اذا ما بدت لي شمس النهار * رطالعة ذكرتني طروبا

ومن ذلك ان محمد بن عامر المنصور وزير الاندلس المشهور صنع قصرا من فضة صافية وأهداه للسيدة صبح البشكنشية أم الخليفة هشام وحمله على رؤس الرجال فجاب حبها بذلك وقامت بامره عند سيدها الخليفة الحكم حتى قال الخليفة لبعض خواصه ان هذا الفتى سلب عقول حرمنا بما يتحفهن به

ومن ذلك ان الحكم ثالث خلفاء الاندلس كان له خاصة ألفا فرس مرتبطة على شاطئ النهر بقبلي قصره تجمعها داران

والاعجب من ذلك ما رواه المؤرخون من ان الخليفة عبد الرحمن الناصر المشهور أراد الفصد ذات يوم فجلس في البهو الكبير المشرف باعلى مدينة الزهراء واستدعى الطبيب لذلك وأخذ الطبيب الآلة

وحبس يد الناصر فبينما هو كذلك اذ أطل زرزور فصعد على اناء ذهب بالمجلس وأنشد

أيها القاصد رفقا * يا أمير المؤمنينا
انما تقصد عرقا * فيه محيا العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف أمير المؤمنين ذلك غاية الاستظراف وسُرّ به غاية السرور وسأل عمن اهتدى الى ذلك وعلم الزرزور فذكر له ان السيدة الكبرى مرجانة أم ولده وولي عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك وأعدته لمثل هذا اليوم فوهب لها ما ينيف على ٣٠ ألف دينار

تقدم الاندلسيين

وأمثال هذه الوقائع أكثر من أن تذكر وأقول ان أول تبليط حصل بالمدائن كان في قرطبة وكذلك الانارة العمومية بالليل قبل أن يعرف ذلك أحد من أهل الارض قاطبة فقد كان السائر يمشي فيما وفي أرباضها على ضوء السرج المتصلة مسافة ١٠ أميال

معارف الاندلسيين

وأما رسوخ قدمهم في العلم والعرفان فأمر يشهد به العدو والصديق ولا أذكر منهم الآن سوى أبي القاسم بن فرناس فانه أول من استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك كتاب العروض للخليل وأول من فك الموسيقى وقد صنع في بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والرعود والبروق وصنع الآلة المعروفة بالمنقالة ليعرف الاوقات على غير رسم ومثال

وقد احتال فى الطيران فكسا نفسه بالريش واتخذ جناحين وطار فى الجو مسافة بعيدة ولكنه لم يحسن الاحتيال فى السقوط فتأذى اذ غفل عن اتخاذ الذنب ولم يتنبه الى ان الطائر انما يقع على زمكاه

ولقد كانت ملوك الافرنج جميعا تستخدم الاطباء من العرب واليهود الاندلسيين وكانت الصنائع والفروسية والابهة فى عهدهم فى مزيد وكان عندهم مواضع شتى للفرج واللهو أما علم المساحة والفلك والكيمياء والطب فلم يكن الا فى قرطبة دون غيرها من سائر المدن حتى ان شانجه ملك ليون الملقب بالسمين اضطر الى أن يسافر اليها ليأخذ الطب عن رجل كان مشهورا فى عصره فلما استدعى به الملك أجابه مع الرسول قائلا ان كان للملك حاجة الىّ فليقدم علىّ ومثل ذلك الزيج الذى اشتهر به الفونس العاشر ملك قشتيلية وصار له به فخر على ملوك أوروبا انما حرره له علماء العرب كما يشهد بذلك علماء الافرنج أنفسهم

أسوة حسنة للمصريين

ومما ينبغى ذكره فى هذا المقام ان القوم ما وصلوا الى هذه الدرجة الا بالعلم والعرفان وما أجدر شباننا المصريين الاذكياء المتعلمين أن يقتدوا بأهل الاندلس فى ذلك الزمان فانهم كانوا جميعا أحرص الناس على التميز حتى ان الجاهل الذى لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ويربأ ان يرى فارغا عالة على الناس وكانوا

يقرؤن جميع العلوم فى المساجد بالاجرة لانهم كانوا يتعلمون لاجل أن يعلموا الخلائق وينوروا الاذهان لالكى يأخذوا جاريا أومعلوما ولذلك كان العالم منهم بارعا لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على ترك الشغل الذى يستفيد منه وينفق من عنده حتى يتعلم ومثلهم الآن معظم علماء أوربا

ومما ينبغى اضافته للعلم مراعاتهم للشرع الشريف حتى مراعاة الشرع

لقد كان للدولة الاموية فى أيام عز الاندلس هيبة وتمكين ناموس من قلوب العالم فكان فى ذلك ضخامة لدولتهم ورسوخ لاقدامهم وقد ذكر ابن حيان وقائع كثيرة يستدل منها على توجه الحكم على خليفتهم أو على ابنه أو على أحد حاشيته المختص به وانهم كانوا فى نهاية من الانقياد للحق لهم أو عليهم وبذلك انضبطت لهم الامور وكبرت الهمم وترتبت الاحوال ووطدت القواعد ولما خرقوا هذا الناموس تهتك أمرهم واضمحل شأنهم وفشلوا وذهبت ريحهم حتى قال شاعرهم

أسباب دمارهم وفيها أعظم عبرة

مما يزهدنى فى أرض أندلس * تلقيب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخا صورة الاسد

ومازالوا على هذا الاضمحلال وهذا الانحطاط حتى تقلبت الدول وكان الخرق لايزداد الا اتساعا وصدق عليهم قول الشاعر

فبيناانسوس الناس والامر أمرنا * اذاضن فيهم سوقـــة تتنصف

فوقع الاختلاف بعد ذلك الائتلاف وأعيا العلاج حكماء الرجال وعصفت عليهم ريح العدوّ والحرب سجال حتى لقد تمكن منهـم بالتفريق وإلقاء العداوة بينهم وبين بعضهم بقبيح المنافسة ومرذول الطمع وآل أمرهم الى أن استقل العمال وأقام كل واحد منهـم نفســه ملكا فى بلد واحــد وصاروا يطمعون فى بعضهم ويستجيشون بالاســبانيين و بطاغيتهم ويسلمونه حصون المســلمين تشــفيا لبعض غاياتهـم حـتى ان بعض ملوك الطوائف واسمــه المأمون قبحه الله وأخزاه بعث الى ملك قشتالة أوقشتالة المعروفة أيضا باسم قشتيليــة (Castilla) يستنصره عــلى الموحــدين ويسأله ان يبعث له جيشـا من الروم يجوز به الى العــدوة أى مراكش لقتال يحيى ومن معــه من الموحــدين فقال له ملك قشتيلية «لاأعطيـك جيشـا الا على شريطة ان تعطيـنى ١٠ حصون مما يلى بـلادى كما أختـارها لنفسى واذا منّ الله عليك ودخلت مدينة مراكش تبنى للنصارى الذين يـسيرون معك كنيسـة فى وسطها يظهرون بها دينهـم ويضربون فيها نواقيسهم أوقات صلواتهم وإن أسلم أحد من الروم لايقبل اسلامه ويرد الى اخوانه فيحكمون فيه بحكمهم ومن تنصر من المسلمين فليس لاحد عليــه

من سبيل» فاسعفه التذل الجبان فى جميع ماطلب من غير تبصر فى العواقب

ويشبه ذلك أيضا ماجرى فى واقعة العقاب (١) وذلك ان محمد الناصر المشؤم على المسلمين وجزيرة الاندلس بالخصوص جمع جموعا اشتملت على نحو ٦٠٠٠٠٠ مقاتل وداخله الاعجاب والغرور بكثرة من معه من الرجال فصاف الافرنج فكانت الدائرة عليه وعلى المسلمين فان الافرنج دهموهم وهم على غفلة وغير أهبة وخلا بسبب هذه الواقعة أكثر المغرب واستولى الافرنج على معظم الاندلس اذلم ينج من الستمائة ألف غير عدد يسير جدا لايقارب الالف وكانت هذه الواقعة هى الطامة الكبرى على الاندلس بل والمغرب وما ذلك الا لسوء التدبير فان الناصر ووزيره استخفا برجال الاندلس العارفين بقتال الافرنج وشنقا بعضهم وظنا ان كثرة الاجناد تغني عن دربة القواد ففسدت النيات وتفرقت الكلمة وتخاذل المسلمون حتى ان جماعات الموحدين لم يسلوا سيفا ولم يشرعوا رمحا ولاأخذوا فى شيء من أسباب الدفاع ولا أهبة القتال بل انهزموا الاول حملة الافرنج عليهم قاصدين لذلك والعدو يلي

---

(١) جمع عقبة لكثرة العقبات التى بجانب مدينة طلوسه *Tolosa* فى شمال اسبانيا وتعرف هذه الواقعة عند الافرنج بما هو ترجمتها *Las Navas de Tolosa* وقد أشرت الى الراية التى أخذها الاسبانيون منهم وهى فى برغش

فيهم ويقتل فيهم قتلا ذريعا وهم (يا للنذالة يا للنذالة) معرضون عنه بل عن الدفاع عن أنفسهم ويقول المؤرخون ان الناصر ثبت فى ذلك اليوم ثباتا لم ير لملك قبله

ولم يزل حالهم على هذا الاختلاف حتى حينما تضعضع أمرهم وضيق عليهم العدو أشد الضيق وأحدق بغرناطة من كل مكان ومع ذلك لم تنقطع شأفة الشقاق حتى كان فى هذه المملكة الصغيرة ثلاثة ملوك (١) أحدهم فى غرناطة نفسها والثانى فى أحد ضواحيها

---

(١) فمن أكبر المصائب ان أبا عبد الله (المعروف عند الافرنج باسم *Boabdil* وهو الذى اضطر فيما بعد لتسليم غرناطة للاسبانيين) ثار على عمه أبى القاسم ملك غرناطة فساعده على خلع الطاعة وشق عصا الجماعة الملك فردىنند الكاثوليكى طمعا فى اشتداد الخصام واحتدام الفتنة ليضعف كل من الاميرين المسلمين صاحبه ويبقى فتح غرناطة هينا عليه ثم توفى أبو القاسم فخلفه على سرير الملك أبو عبد الله المذكور فلم يلتفت فردىنند الى ما بينهما من سابق المؤالفة والمحالفة بل استضعفه ورأى الغنيمة باردة فهجم عليه بجيوش قشتلية وأراغون وبما جاءه من المدد الكثير من أوربا ومع ذلك لم يتمكن من فتح غرناطة الا بعد ست سنوات فانه فى آخر الامر تمكن من حصارها ثمانية شهور وساعده نزول الثلج وكلب الشتاء على قطع الطرق وتضييق الحصار فجاءت الملكة ايزابلا لتحضر هذا الفتح بنفسها وتتمتع بالدخول الى غرناطة

وقد تم التسليم بشروط وامتيازات تدل على ان المدينة كان فى وسعها استمرار الدفاع فانه تقرر ان الفاتحين لا يمسون شيئا من أموال المسلمين ولا شرائعهم ولا دياناتهم

المعروف بربض البيازين (١) والثالث فى عمله القريب منها وهو مدينة وادى آش المعروفة أيضا بواديآش وبوادى الاشات وكانوا قد أحسوا بهذا الخطر احساسا الامر بدعليه حتى(٢) انهم استبدلوا الاقوال التى كانت تستعمل عادة فى ضرب السكة بآيات وعبارات توافق

ولا حريتهم وأن لا يتعرضوا اليهم بأى وجه كان بل انهم يردون اليهم اسراهم من غير فدية ومما يدح عليه المسلمون وينبغى تسطيره فى بطون التواريخ تخليدا لمكارمهم انهم اشترطوا أن يكون اليهود كل هذه الامتيازات أيضا وعلى هذا اليهود خرج أبو عبدالله من غرناطة وسلم مفاتيحها الفرد ننذ وايزا بلا

ويقول المؤرخون العصريون انه أذرف الدموع حين مارى بصره الى هذه المدينة التى كانت فى يد المسلمين منذ ٥٠٠ عام تقريبا واضطرته الاقدار لتركها عامرة آهلة تفوق كل مدينة سواها وقد رأيت فى بعض التواريخ الافرنكية أنه حين اخنقته العبرة وأخذه البكاء قالت له أمه بيتا من الشعر معناه

ابك مثل النساء على ملك لم تقدر على حفظه مثل الرجال

ولم أقف للآن على لفظ هذا الشعر بالعربية غير ان الشاعر الاديب محمود أفندى واصف قد نظمه فى هذا البيت

ابك مثل النساء ملكا مضاعا ❋ لم تحافظ عليه مثل الرجال

(١) هذا المحل سمى كذلك لكونه كان سوقا لاناس اتخذوا تربية البازى حرفة لهم ويسمى عند الافرنج *Albaicin*

(٢) هذا الاستخراج مما ينبغى الالتفات اليه وأقول انه مما لم تتنبه اليه أحد من العلماء الباحثين على ما أعلم وهذا من ضمن الفوائد التى تنتج من علم النقود والمسكوكات

مقتضى الحال وقد رأيتها منقوشة على الدراهم والدنانير المحفوظة في متحف مدريد وعند الماجد الفاضل الدون أنطونيو فيفس(١) D. Antonio Vives وهو من علماء أهلها المشتغلين بالعربية وبفن النقود وذلك مثل (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك عمن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ولا غالب الا الله) . ومثل (غرناطة حاطها الله) . (غرناطة حرسها الله . مالقة حاطها الله) . (المرية حرسها الله) - ومثل (حمراء غرناطة . نصر من الله وفتح قريب) - ومثل (العاقبة للمتقين) - ومثل (وما النصر الا من عند الله) - ومثل (وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم صدق الله العظيم) - ومثل (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) - ومثل (الامير فلان أعانه الله ونصره) . أو (أيده الله ونصره) وجميع هذه العبارات لم تكن مستعملة في نقودهم قبل الايام الاخيرة التي أعقبها انقراض دولتهم وما زالوا على هذه الذنن حتى انمحى أثرهم من الجزيرة ولقي من بقي فيها من أنواع الاضطهاد والهوان ما سأفصله في الرحلة ان شاء الله

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام انهم قد شهد لهم الاعداء قبل الاصدقاء بأنهم لما تم لهم في ظرف أربعة عشر شهرا فتح اسبانيا كلها ماعدا مغارات وصخور أُسْتُورِيش Asturias (Les Asturies)

---

(١) انظر النبذة التي وضعتها بخصوص اسماء الاعلام صحيفة ٤٣٦

لم يتجاوزوا الحدود ولم يشطوا فى الطلبات كما فعلته جميع الامم الفاتحة بل أبقوا للمغلوبين أموالهم وشرائعهم ودياناتهم مكتفين بضرب الجزية وبشرف السيادة والسيطرة (١) بل انه لم يجل قط بخواطرهم الزام أهل الجزيرة بالدخول فى دين الاسلام ولكن لما سقطت غرناطة اشتدت وطأة المحكمة المعروفة بمحكمة التحرى القسيسى (Inquisition) فكان لها من القسوة مع التنظيم فى ارتكاب الفظائع ما يخجل له كل من فى قلبه ذرة من المروءة والانسانية وهذه المحاكم قد أمر البابوات بانشائها لخدمة الدين ظاهرا والسياسة باطنا ولكن الاسبانيون أضافوا عليها أعمالا بربرية وحشية تقشعر لهولها الجلود وتجمد منها الدماء فى الشرايين فمن ذلك احراق الملايين من الكتب النفيسة وإبادة الآلاف المؤلفة من النفوس البريئة بأنواع العذاب والاحراق والاغراق وغير ذلك مما لا يكاد يخطر على بال وعندما سقطت غرناطة أراد الكردينال شيمينيس Xéminès ان يتنصر جميع المسلمين الذين فيها مع مخالفة ذلك للمعاهدة الصريحة التى عقدت

---

(١) وكذلك السلطان محمد الثانى لما فتح القسطنطينية وبلاد الاغارقة (La Grèce) ترك أهلها يتمتعون بحياتهم بكل سلام وأمان وأباح لهم ممارسة ديانتهم كأنه لم يطرأ عليهم شئ من الانقلاب وجرى على سنته الشريفة خلفاؤه من بعده

مع أهل غرناطة وقت التسليم ولما كانت عملية التنصير تستوجب زمانا طويلا أراد الكردينال ان يصل اليها بغاية ما يمكن من السرعة كما تم فتح غرناطة فى وقت قريب فأرسل قساوسته يعظونهم ويضطهدونهم كما يشهد بذلك نفس مؤرخيهم وما زالوا بهم حتى أخضعوهم واضطروهم للتعميد فدخل بهذه المثابة خمسون ألف نفس فى دين لا يعتقدونه ولا يقولون به وياليتهم أبقوهم على ذلك بل جاء الكردينال تركماده Torquemada وزين لايزابلا انهم يظهرون خلاف ما يبطنون وانه يسوغ حينئذ مصادرتهم فى أموالهم واعدامهم الحياة وقد كان

-

ولقد صدق على العرب ما قاله أحد ملوك فرنسا (وهو شارل مارتل) حينما فزع اليه أكابر دولته لما رأوا امتداد فتوحاتهم وسرعة توغلهم فى البلاد فانه قال لهم ما معناه — (الرأى عندى ان لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل من يصادره وهم فى اقبال أمرهم ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم على بعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر) — فكان كذلك بالفتن التى استدامت بين البربر والعرب وبين العرب وبعضهم وصار بعض المسلمين يستعين ويستجيش على

بعض بمن يجاورهم من الاعداء وانقلب الموضوع وتبدلت الاحوال فقد أجلى المسلمون فى أول الامر جميع أهل الجزيرة وأقصوهم الى آخر حدودها شمالا حتى لم يبق منهم الا ٣٠٠ رجل مع ملك يسميه العرب بلاى ويسميه الاسبانيون بلايو Pelayo ويسميه الافرنج بلاج Pélage فالتجا هذا العدد القليل بمكان يعرف عند العرب بالصخرة ويعرف عند الافرنج الآن باسم جبل كوفادونجا Covadonga ولم يزل المسلمون يلحون عليهم بالقتال حتى مات أصحابه جوعا وبقى فى ٣٠ رجلا و ١٠ نسوة ولا طعام لهم الا العسل يشتارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به حتى أعيا المسلمين أمرهم واحتقروهم وقالوا (ثلاثون علجا ما عسى أن يجيء منهم) وما علموا ان الائتلاف والاتحاد من جهة القشتاليين والتغابن والتخاذل من جهة أبنائهم وأعقابهم جعل لهؤلاء «الثلاثين علجا» من القوة والكثرة ما لا خفاء به حتى قهروا العرب وأجلوهم بالمرة وأذاقوهم أنواع الذل والهوان مما هو مسطور فى كتب التواريخ وسألم ببعضه فى الرحلة ان شاء الله

واعلم أن اخراج العرب من اسبانيا أضر بهذه المملكة وبأهلها ضررا بليغا لم يحصل له نظير فى مملكة من ممالك العالم على الاطلاق فانها كانت فى أيام العرب عامرة زاهرة بالغة من الحضارة

والجلالة ماهو مشهور معلوم وكان عدد سكانها فى أزمانهم ٤٠ مليونا فاصبحت الآن مع الرجوع الى العمار وانتظام الاحوال بعض الانتظام ولم الشعث ورم الرث ورقع الخرق ورتق الفتق لاتحتوى على أكثر من ١٧ مليونا من النفوس فلذلك ترى أغلب أراضيها خالية وأكثر مزارعها خاوية ومصادر الثروة فيها مهملة وأصول الاسترزاق معطلة ولاأريد الاطالة بذكر الاسباب وانما أقتصر على ايراد شئ قليل يدل على مايضطرنى حجم هذه الرسائل وموضوعها للاجمال والاقلال فى المقال وذلك ان الملك فيليب الثانى وحده طرد ممن بقى من المسلمين مابين ٦٠٠ ألف و ٧٠٠ ألف نفس وكانوا كلهم لايشتغلون بغير الزراعة والتجارة والصناعة لايعرفون استعمال السلاح باى حال من الاحوال وكانوا مفيدين نافعين لانهماكهم فى الشغل والعمل فى بلاد اشتهر أهلوها بالبطالة والكسل وكان القوم يضطرونهم للتظاهر بالنصرانية ويكثرون مع ذلك من تعذيبهم واضطهادهم ومصادرتهم وتجشيمهم أنواع الاهوال التى لاتخطر على البال حتى انهم لما بلغ الضيم بهم منتهاه نزعوا الى الثورة وشق عصا الطاعة فاسترسلوا لداعى الفتنة ولكن أى فتنة وهم قوم لايدرون شيأ من الطعن والضرب ولذلك لم يكن على الدولة سوى ارسال نفر قليلين من جنودها لاخماد هذه

الشبه ثورة الضعيفة التي لا تذكر إخمادا تم في أقل من لمح البصر ولقد رقت لبلواهم حينئذ دولة فرنسا حيث رأتهم أناسا مستضعفين لا ناصر لهم ولا معين سوى انكبابهم على اتقان الصنائع واخصاب الاراضي ولذلك راسلهم ملك فرانسا هنري الرابع (وقد أشرنا اليه أثناء كلامنا على التماثيل والانصاب في باريس) ووعدهم بالامداد والانجاد وانه يجعلهم تحت حمايته حتى لا ينالهم ضير ولا أذى ولكن الدهر كان لهم بالمرصاد وشؤم الطالع ونحس البخت من ورائهم أينما وجهوا وجوههم لا يرون الا نكدا وبؤسا ولا يلاقون الا انتقاما وتعسا فقد قضى عليهم ان لا يخلصوا من ورطة الا وقعوا في شرمنها وان لا يسلكوا سبيلا للنجاة الا انقلب عليهم سبيلا للهلاك ولله في خلقه تدبير سبحانه قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامه وذلك أنهم لما تلهفوا بقدر ما تلهفوا ثم استنشقوا روح الامل القليل بمساعدة هذا الملك الجليل لم يلبثوا ان انقلبت أمانيهم خسرانا عليهم ووبالا فان أحد الكتاب في نظارة الخارجية بفرنسا خان الملك وأذاع هذا السر وأعلم ملك اسبانيا بما عزمت عليه فرنسا فكان ذلك سببا للتعجيل في تفريقهم والاسراع بتمزيقهم والمبادرة لطردهم (وهم بقية بقايا البقايا بالاندلس) غير انهم كانوا شديدي التعلق بالبقاء بالاندلس للتمتع به واستنشاق

نفسه فعرضوا على الملك ان يدفعوا له مليونين من الدنانير ثمنالا بقائهم فى أرض مهادهم فلم يرض فيليب بذلك على الاطلاق ولكنهم لشدة تعلقهم ببلادهم أنفوا من الخروج مؤثرين الذل فيها على العز فى غيرها فالتجأ نحو ٠٠ ٢ ألفا منهم الى الجبال ولم يكن لديهم من وسائل الدفاع سوى الحجارة والمقلاع وهى من الوسائل التى لاتفيد شيأ ولذلك مالبثوا ان اضطروا للتسليم ثم صار نقلهم خارج المملكة ففقد فيليب بذلك أفضل رعاياه وأكثرهم حذقا ومهارة . وقد لجأ أغلب من نجا بحياته من هؤلاء الاندلسيين المطرودين الى افريقية وطنهم الاول وأدخلوا بها من الصنائع والفنون ماجعل صحاريها جناناوبواديها نعيما . وشخص بعضهم الى أرض فرنسا فى عهد مارى دومدسيس ثم بارحها الذين لم يرضوا بتغييردينهم الى أرض تونس وأما الباقون فتنصروا واستقروا باقليم بروفنسه (Provence) ولانجدوك (Langdoc) بل ذهب بعضهم الى باريس واستوطن بها وكانوا معروفين متميزين عن بقية القوم ولكنهم مع توالى الزمن امتزجوا بالامة امتزاجا تاما فاستفادت فرنسا من حيث خسرت اسبانيا وهذه سنة الله فى خلقه تتداخل الامم فى بعضها بالاضطهاد وبالفتوحات — وقد قرر العلامة فولتيرهذا الموضوع

ولقد أبقى العرب فى اسبانيا آثارا مادية كثيرة لايزال بعضها باقيا الى يومنا هذا كما أنهم خلدوا فيها كثيرا من النظامات والقوانين

والسياسات والتراتيب والاحكام مما يراه الانسان فى هذه البلاد حتى اليوم كما انهم كان لهم مؤثر كبير فى الاخلاق والآداب حتى لقد رأيت فى أخلاق أهل اسبانيا أخلاق العرب وشهامتهم وكرامتهم فقد لقيت فيهم حسن الوفاء وجيد الطباع والتحبب الى الغريب والفرح بافادته واعانته سواء كانوا يعرفونه أولا يعرفونه وذلك ما يجعلنى أفضلهم جهارا وأشهد على رؤس الاشهاد بان أخلاقهم أدمث وألطف وأشرف من جميع الامم التى طفت ديارها فى هذه الرحلة المستطيلة وسأشرح ذلك بالتفصيل عند الفرصة اعطاء لكل ذى حق حقه وتقريرا للوقائع كما هى حتى انى وجدت فيهم من الطباع النبيلة ما قد نسيه أهل البلاد العربية وانى اذا تعصبت لامة من الافرنج فانما يكون ذلك لاهل اسبانيا حياهم الله وبياهم فقد آنست فيهم وفى بلادهم خصوصا أيام كنت أجهل لغتهم وليس لى من صديق فيهم وقبل وصولى الى مدريد ما يجعل لسانى يتلو آيات شكرهم فى كل ناد ويفصح بمفاخرهم وآثارهم فى كل واد على توالى الآماد وأكرر قول الاندلسى على جميع البلاد

أخلاق الاسبانيين

تلك الجزيرة لست أنسى حسنها ❋ بتعاقب الاحيان والازمان

(تم)

كمالة الرسالة الاندلسية

وهى

(نبذة فى امتزاج العرب بالعجم فى اسبانيا)
(والاستشهاد على ذلك بالاسماء والالقاب)

اعلم أن كثيرا من أشراف العائلات الاسبانية الاصلية امتزجت بالعرب امتزاجا كليا ودخلت فى دين الله القويم ولكنها لم تغير ألقابها الخاصة بها لما كان لها بالطبع من الجاه والحسب وقد نبغ منها كثيرون

مثال ذلك ۞ ابن بونه وهو اسم لكثير من أدباء الاندلس وأصله الاسبانى (Bueno و Bono) ومعناها الطيب والجيد — ولاتزال عائلات اسبانيه كثيرة بهذا الاسم الى الآن ۞ ومثل ابن بيبش (وهذا هو الاسم الذى دعانى لتحرير هذه الكمالة) وهو اسم لجملة أدباء اندلسيين منهم الغرناطى اللغوى الاديب أبوعبد الله محمد بن بيبش (Ibn Vivax) من شيوخ وزير الاندلس المشهور بابن الخطيب . وأصل اسم العائلة من كلمة اسبانية لاتينية (Vivas و Vives) مشتقة من فعل معناه الحياة والعمر والمعيشة — وربما كان صاحبنا الدون أنطونيو ڤيڤس المذكور بالمتن (صحيفة ٤١٨) من نسل هذه العائلة فاذا صح ذلك الظن

تكون أصلها اسبانية ثم استعربت ثم استسبنت (أى صارت اسبانية كما كانت) ويكون الحكم كذلك فى بقية العائلات المذكورة فى هذه النبذة ۞ ومثل ابن بشكوال Ibn Paxcual وهو الشيخ العالم أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال من مشاهير المؤرخين من أهل قرطبة وله كتب كثيرة جزيلة الفائدة منها كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم وهو حجة ثقة واسمه مشتق من Pascual من كلمة لاتينية Paschalis ومعناها المنتسب لعيد الفصح ولا يزال باسبانيا وأوروبا عائلات كثيرة بهذا الاسم ۞ ومثل ابن الأقشتين وهو لقب لكثير من الاندلسيين منهم الاديب محمد بن موسى بن هاشم وهذا الاسم من كلمة اسبانية Agustin فرنساويتها Augustin ولاتينيتها Augustinus ومعناها العظيم الجليل ۞ ومثل ابن البلذش وابن البيذش Ibn-al-Pedex وهى كلمة اسبانية لاتينية نص ابن الأبار على ان معناها القدمان أى الرجلان Pedes وهو لقب لاديب غرناطى توفى سنة ٥٢٨ ۞ ومثل ابن برّال Borrel و Burriel وهو أبو بكر من مشاهير أدباء الاندلس ولا يزال لقبا لعائلات اسبانية كثيرة ۞ ومثل ابن بشتغير (Ibn Baxtagair) وهو من أدباء الاندلس واسمه أبو جعفر ولقبه من كلمة لاتينية Bastagarius معناها الموكل بنقل أمتعة

الدولة أو الكنيسة فى الاحتفالات العمومية ۞ ومثل الرُّشَاطى وهو النّسابة الاندلسى أبو محمد الرشاطى Arroxati وهذا الاسم مشتق من كلمة اسبانية (روسيتا = Roseta بمعنى الوريدة تصغير وردة) ۞ ومثل ابن الرومية وهو لقب لاحد مشاهير علماء النبات من أهل اشبيلية وبما ان عادة العرب النسبة الى الاب لا الى الام الافى أحوال استثنائية قليلة جدا فذلك يخيل لى أنهم أبقوا له هذا اللقب دلالة على أصله كما فعلوا بالنسبة لابن القوطية أحد مشاهير كتاب الاندلس فان العرب أطلقوا اسم القوطية La Goda بالاسبانية و La Gothe بالفرنساوية على سارة Sara حفيدة الملك القوطى ويتيزا Witiza أو Vitiza المعروف عند العرب باسم غيطشه وربما كان الرجل من نسلها ۞ ومثل ابن غَرْسِية وهو لقب لكثير من الاندلسيين منهم الفقيه العلامة عبد الرحمن بن أحمد وهذا اللقب اسبانى محض Garcia وكان فى القديم يكتب هكذا Garsea و Garsia و Garseas و Garseanus ولازال لقبا لعائلات اسبانية كثيرة ۞ ومثل ذو الوزارتين السرقسطى ابن غُنْدَشَلْب وكان صاحب جاه عظيم ونفوذ كبير فى دولة بنى هود بمملكة الثغر الاعلى أى مملكة سرقسطة وله شعر جيد — وهذا الاسم اسبانى محض Gonzalo و Gonzalve و Gonzalez الخ ولازال لقبا لكثير

من العائلات ۞ ومثل ابن فُورْتِش وهو لقب لبعض علماء الاندلس (ولاتينيته Fortis بمعنى قوى شديد) — ولايزال لقبا لكثير من العائلات الاسبانية الآن ۞ ومثل ابن كُنْبَرَاط Comparath وهو من أهل بلنسية العارفين بالطب وعنه أخذ القاضى أبو الوليد بن رشد Averroès فيلسوف الاندلس المشهور — وهذا اللقب اسبانى محض ۞ ومثل ابن ليون لقب لابى عثمان العالم الاديب الناشئ بمدينة المرية Almeria ولابيه أبي جعفر من علماء الفلاحة المبرزين ومن شيوخ الوزير ابن الخطيب — وهذه الكلمة اسبانية محضة Leon تجيء من اللاتينية Leonis, بمعنى الاسد ولازالت لقبا لكثير من العائلات الاسبانية الآن ۞ ومثل ابن سَلْبَطُور من مشاهير علماء الاندلس وهذا اللقب مستعمل الى اليوم — وهو بالاسبانية Salvador وبالطليانية Salvatore وبالفرنساوية Sauveur ومعناه المخلص والمنقذ والمنجي وهو علم فى العادة عند النصارى على سيدنا عيسى عليه صلاة الله وسلامه — ومثل ابن فيره لقب للعالم الاندلسى المشهور صاحب الشاطبية وقد نص ابن خلكان على انه لقب اسبانى معناه الحديد — واعلم ان الحديد يسمى عند الفرنساويين Fer وعند الطليانيين Ferro وكان يسمى كذلك فى القديم عند أهل اسبانيا مشتقين له من اللفظة

اللاتينية ولكنهم اليوم حرفوه فلا يقولون « فيرُه Ferro » اذا أرادوا ذكر الحديد بل يقولون من باب التحريف « Hierro هييره » وهم لا ينطقون مطلقا بحرف H مقابل الهاء ولكنهم يقولون عن السكك الحديدية Caminos de و Ferrocariles hierro فترى ان كلمة « فيرُه » لازالت باقية عندهم فى بعض التراكيب ❁ ومثل ابن فورتون وابن موريجون لكثير من علماء الاندلس وهما لقبان اسبانيان محضان لايزالان مستعملين الى اليوم Fortun و Morejon ❁ — وقد اطلعت على أسماء كثيرة للاندلسيين وليست من العربية فى شئ على الاطلاق مثل تومرت واخجلينو واشقيلولة ومردنيش وهمشك وكثير غيرها ولكننى لم يتيسر لى ارجاعها الى أصولها الافرنكية وسأستوفى ذلك فى فرصة أخرى ان شاء الله

ومن الامور التى يجب ذكرها تكملة لهذه الكتابة أن أهل الاندلس المسلمين تفردوا بزيادة الواو والنون فى آخر ألقابهم بخلاف المشارقة كما تفرد بعض الاعجام بزيادة « ويه » فى سيبويه ونفطويه وعمرويه وخالويه ومردويه ومزرويه وحيويه وشاهويه ودرستويه وراهويه ورزقويه ومادويه وقاذويه وشيرويه وكاكويه وحمويه ورحمويه الخ وكما تفرد الارمن بزيادة « يان » و « آن » فى آخر أسمائهم وكما تفرد الروس بزيادة « أوف »

و «إيف» ولاحاجة لايراد الامثلة هنا فانها مشهورة سوى انى أقول ان بعض أهالى ايران والچركس وغيرهم من التابعين الآن للروسيا ملزمين باضافة «أوف» أو «إيف» على أسمائهم وقد لاقيت فى المؤتمر عالما فارسيا من هذا القبيل اسمه «أحمد اغايف بك أى أحمد أغابك» واعلم ان نظير هذين الحرفين «الواو والنون» أى on فى اللغات الافرنكية وخصوصا الاسبانية اذا وضعا فى آخر كلمة افرنجية أفادها القوة والشدة والتفخيم وكأنى بالاندلسيين أرادوا هذا المعنى من باب التسامى على المشارقة ومثال هذه الاسماء مضافة الى لفظة ابن: بدرون . برون بكرون ـ جبرون . جافون ـ حبرون . حبنون . حضرون . حفصون . حكمون . حمدون . حنون . حيون ـ خلدون (١) خلفون . خيرون ـ دحون ـ

---

(١) أذكرها من باب التفكهة ان أحد شعراء الاندلس وهو أبو على المالقى هجا العلامة ابن خلدون بهذين البيتين

باشاعرا يتسامى * وجده خلدون

لم يكف أنك خل * حتى بانك دون

وهذا شبيه بالشاعر الذى ذم نفطويه والقائل أبو عبد الله محمد بن زيد بن على بن الحسين الواسطى المتكلم المشهور وقال

من سره أن لا يرى فاسقا * فليجتهد أن لا يرى نفطويه

أحرقه الله بنصف اسمه * وصير الباقى صراخا عليه

قال ابن خالويه ليس فى العلماء من اسمه ابراهيم وكنيته أبو عبد الله سوى نفطويه وهو بكسر النون وفتحها والكسر أفصح لقب بذلك لدمامته تشبيها له بالنفط

رزقون - زرقون . زقنون . زكون . زيدون - سحبون .
سعدون . سابون . سلون . سمعون . سمجون . سهلون -
شبطون Xabaton - ضيفون - عبدون . عبيدون (وفى هذا الاسم
تصغير بالعربى وتكبير بالافرنجى) . عجلون . علون . عفيون .
عمرون . عيسون . عيشون - غدرون . غابون - فتحون .
فلون . فرحون - قلون . قنون - لطفون . وهبون -
يسعون . يشمون . يحيون .

واعلم أن زيادة الواو والنون تعدت أيضا الى بعض أسماء النساء
فذكرلك اسم الشاعرة نزهون وهى من أشعر نساء الاندلس ومن أكثر
المشتغلين بالنظم بديهةً واجادةً كانت تسكن بغرناطة ولها واقعة
حال مع شاعر أعمى من المشارقة تدل على شدة بديهتها حينما
طارحته الشعر فى حضرة أحد الامراء ولولا مافيها من بعض
الاخلال بالادب لذكرتها من باب التفاخر بها ولكن ذلك لايمنع
الطالب من البحث عليها فى كتاب نفح الطيب المطبوع فى بولاق
صحيفة ٩٠ و ٩١ و ٩٢ وأخبارها فى صحيفة ١١٤٦ و ١١٤٧
من الكتاب المذكور وقد أورد الضبى شيأ من أشعارها فى كتاب بغية
الملتمس فى تاريخ أهل الاندلس فى صحيفة ٥٣٠ (نمرة ١٥٨٨) من
النسخة المطبوعة فى مدريد سنة ١٨٨٥

ونذكر أيضا اسم شاعرة أخرى مشهورة وهي سعدونة فقد أضيف الى اسمها علامة التأنيث

والاغرب من ذلك أن بعضهم أضاف على اسمه حرفي الواو والسين وهما علامة الانتهاء في اللغة اللاتينية Us ومثال ذلك : أحمدرس أنسوس - عبدوس . عمروس - طعلوس . طهلوس - فالوس فرعوس . فرغلوس - فبتروس . قبيلس ﴿؟﴾ ومنهم من يسمى حديس وهذان الحرفان الانتهائيان هما أيضا من خصائص اللغة اللاتينية (Is) كما لا يخفى على العارف . واعلم أن هذه الاسماء التي ذكرناها هي أعلام لعلماء ترى تراجمهم في كتب ابن الابار وابن الفرضي والضبي وابن بشكوال ونفح الطيب وابن خلكان ودائرة المعارف وآثار الادهار ومجموعة القطع العربية التي انتخبها العلامتان الاسبانيان لرتشندى و سيمونيت (Lerchundi y Simonet) والمعجم العربي الاسباني الذى ألحقاه بكتابهما المذكور

واعلم أيدك الله وأبقاك أنه لما آل أمر بقاياهم بالاندلس الى منتهاه من التلاشي والاضمحلال وتناسوا اللغة العربية وأساليبها مرة واحدة أهملوا لفظة « ابن » واستبدلوها بعلامة الاضافة في اللغة القشتالية وهي « دو » فكانوا يقولون (فلان دو فلان) أى (فلان من) أو (ابن فلان) ولقد نبهني بعض الفضلاء الى أن الافرنج قد يكونون استعملوا لفظة (de = ذو) في اضافة الاسماء والالقاب الخاصة بعائلاتهم الشريفة نقلا عن استعمال العرب اليمانيين الذين يستعملون لفظة (ذو = صاحب) أمام

أسمائهم وانى وان لم يتيسر لى استكمال البحث واستيفاء المراجعة لا أرى مانعا من الظن بان الافرنج قد أخذوا ذلك عن أهل اليمن خصوصا وان التبابعة والاقيال كانوا يزاولون الغزو فى جهات الشمال من آسيا وفى بلاد فارس والهند ومن المحتمل ان كبار عائلات البلاد التى أخضعوها أو مرّوا بها قد تشبهوا بهم فى التكنية بالقاب الشرف كما يحصل عادة من تقليد الامم المستضعفة للامم القوية العلية الشأن ولا يجهل الباحثون الواقفون على ارتباط اللغات بعضها ان بين اللغات الفارسية والهندية وبين اللغات الاوروبية ارتباطات ومشابهات كثيرة جدا فيما يتعلق باصول الالفاظ والتراكيب النحوية والاساليب الصرفية وطرائق التعبير وغير ذلك من العلاقات والمناسبات التى لا تنكر وانى أذكر لك الآن أسماء بعض ملوك اليمن الذين تصدرت ألقابهم بلفظة (ذو) : ذو الاذعار — ذو أصبح — ذو الاذواد — ذو جدن — ذو جيشان — ذو رعين — ذو رياش — ذو سدد — ذو شدد — ذو الشناتر — ذو الصرح — ذو ظلم — ذو فائش — ذو القرنين — ذو قلاع — ذو كرب — ذو كلاع — ذو مرثد — ذو المنار — ذو مهدم — ذو نفر — ذو نواس — ذو هجرس — ذو هرب — ذو يزن — ذو عن

وكذلك وردت أعلام جغرافية كثيرة فى بلاد اليمن وغيرها مصدرة بهذه الاداة (ذو) ولعلى أستكمل البحث من ذلك فى فرصة أخرى

ونرجع الى الكلام على ما يتعلق ببقايا الاندلسيين فى هذا الموضوع فنقول انهم بعد أن تناسوا لفظة (ابن) وصاروا يقولون (فلان دو فلان) استبدلوا لفظة السيد بالكلمة المقابلة لها فى اللغة القشتالية (الدون) (١) كما يفعل الآن بعض العوام من وضع كلمة موسيو الفرنساوية

---

(١) وهى مستعملة عند أهل اسبانيا فى مقابلة موسيو عند الفرنساوية وسير عند الانكليز وسنيور عند الطليانية وهى مختصرة من كلمة لاتينية Dominus ومعناها الرب والمولى والسيد وقد أطلق هذا اللقب فى أول الامر على سادات اسبانيا ثم على ملوكها ثم هو الآن لقب التعظيم فيها

امام الاعلام العربية فى الكتابات والمخاطبات على ماهو مشاهد اليوم
ومثال ذلك عندهم الدون عيسى دوجابر الفقيه الاكبر والمفتى بجامع
شقوبية (Ségovie) فى سنة ١٤٦٢ افرنكية فانه ألف كتابا جليلا فى
الفقه الاسلامى باللغة الاعجمية (الالخميادو) التى سبق لنا الاشارة اليها وقد
طبعت هذا الكتاب بجمعية التاريخ الملوكية بمدريد فى سنة ١٨٥٣
(فى الجزء الخامس من مطبوعاتها) وعندى نسخة منه تدل على غزارة
فضله وواسع علمه ﷺ وقد بلغنى من بعض العلماء أن بعض المراكشيين
المتوطنين على الساحل يستعملون ذلك التلقيب اليوم — والاغرب
من هذا وهذا ما بلغنى فى مدريد من بعض أهل السياحة والتحقيق
ان الاعراب البدويين المتوطنين فى صحارى مراكش (أى بعيدا
عن الساحل بمسافات شاسعة تمنع خيال الظن بوجود أى تأثير
للاختلاط مع أهل اسبانيا الآن) لا يزالون يستعملون هذه الطريقة
فى التسمية أى وضع كلمة « دو » فى المكان الذى يضع فيه بقية
العرب لفظة « ابن » وهذا دليل على اتصال نسبتهم بالاندلسيين
الذين أخرجوا من ديارهم — هذا وقد رأيت عند الدون پابلو خيل
فى سرقسطة حججا شرعية وصكوك معاملات ووقفيات مكتوبة
باللغة الاعجمية (الخميادو) وفيها « الدُّنْيا عائشة » أى السيدة
عائشة والدون فلان وهكذا

ثم أقول من باب الاستطراد غير متعرض فى هذا المقام الى

استكمال البحث فانى أريد توفيته فى فرصة أخرى ان الاسبانيين وقع منهم مثل ماوقع من العرب فان الناظر الى اسمائهم لايعسر عليه ان يتعرف فيها اعلاما عربية قد يكون بعضها مأخوذا بالوراثة وبعضها عفوا أوالمناسبة أخرى ومثال ذلك Codera وهو قديرة (ولايزال الحاج قديرة والحاج قدور من أسماء أهل طرابلس وتونس والجزائر ومراكش) ومثل Zaïdyn = زيدين ❁ و Abad اى عباد ❁ و Alvarez = الفارس ❁ و Alvarez del campo أى فارس الميدان ❁ و Baguer = الباقر ❁ و Moreira = مريرة ❁ و Sofi = صوفى ❁ و Ferran = فران ❁ و Almenara اى المنارة ❁ و Alcayde = القائد ❁ و Alcalde = القاضى (ولايزال هذا اللقب عندهم مرادفا للمحافظ والمديروحاكم البلد كما كان يسمى عند العرب بالقاضى اذ له اختصاصات كثيرة فى الشرع الشريف ويسمى عند الفرنساوية Alcade وان كان الاسبانيون أضافوا الاما L من باب التحريف فى قولهم Alcalde فانما ذلك لاظهار تفخيم الضاد) ❁ و Rabadan = رمضان (الباء حلت تحريفا محل الميم العربية) ❁ و Nasarre = نصار (والاسبانيون ينطقون بحرف S سينا على الدوام مهما كان موقعه بين الحروف الاخرى) ❁ و Calaf = خلف ❁ و Maymon =

ميمون ﴿ و Alvaro = البر ﴿ و Meaza = معازة
﴿ و Alfageme = الحجام الخ

وهذه الاعلام كلها لاناس موجودين في اسبانيا الآن رأيت بعضها في كتب الدلالات وعرفت بعضهم بنفسي ومن ينظر الى اعلام الاسبانيين الآن يرى في آخر أكثرها هذين الحرفين Ez وهما على ماتأكدته علامة على البنوة فكل اسم في آخره ذلك يكون معناه ابن فلان مثل Fernando أى فرنندو ثم Fernandez أى ابن فرنندو وهكذا في جميع الاسماء ولم أر مايشبه ذلك في بقية اللغات الافرنجية التي اطلعت عليها نعم ان كثيرا من أسماء الانكليز تنتهي بمرادف لفظة ابن وهي سن أوسون son مثل ساموبلسن وروبرتسن وجونسن ونحو ذلك ولكنها لاتشعر بالدلالة على البنوة وربما كان هذا المعنى مفهوما منها في أول الامر ثم تنوسي الآن مرة واحدة بخلاف ماهو في اسبانيا

وهذا مايدعوني الى الظن بانه أثر باق من آثار العرب الذين ينتسبون على الدوام الى الآباء مع لفظة ابن والذي يقوي ذلك الظن ان هذه الزيادة في آخر الاعلام الاسبانية تشبه تمام المشابهة لفظة « زاده » و « أوغلي » التي تضاف على أواخر الاعلام التركية والله أعلم

(الخـــاتمة)

بعد أن زرت غرناطة وكتبت رسالتي الاندلسية التي لم يتيسر لي أن أورد فيها جزأ من عشرين مما وقفت عليه من أحوال الاندلس وما رأيته فيها من آثار العرب و بقية أخلاقهم وغير ذلك مما قد يستغرق مجلدا ضخما قمت الى قرطبة (١) وشاهدت المعاهد والبقايا في هذه البلدة الشائقة بل الجنة الرائقة التي يسقيها الوادي الكبير وتحفها أشجار الليمون والبرتقال والرمان فينتشر أريجها ويضوع نفحها فيتعطر هواؤها ويطيب المقام بها ولم تصل مدينة اسلامية الى ما وصلت اليه قرطبة من كثرة المساجد فانها بلغت فيها ١٦٠٠ مسجد وأوصلها آخرون الى ما يزيد عن ضعف ذلك وأهم ما رأيته فيها هو المسجد الجامع الذي لا نظير له في العالم الاسلامي وقد كان في مكانه كنيسة فاشترى المكان عبد الرحمن الداخل بمبلغ مائة ألف دينار ثم صرف على بنائه وتشييده ثمانية آلاف ولكن الملوك والخلفاء الذين أعقبوه لم يقتصروا على ذلك بل رأوا من الضرورة توسيعه والزيادة فيه وعدد هؤلاء الخلفاء ثمانية وكان كل واحد ينفق بقدر سعته ومنهم الحَكَم أنفق وحده أكثر من ١٦١ ألف دينار وكلها من فيء المسلمين الذي يخص بيت المال

---

(١) يقول العرب ان معناها باللغة القوطية (القلوب المختلفة) وقال بعضهم (أجزوا سكنها)

وحده (وهو عبارة عن خمس الغنائم كما هو معلوم) ولما جاء المنصور بن أبي عامر وزير الاندلس المشهور وعزم على زيادة المسجد ليكون مناسبا لاتساع قرطبة وزيادة سكانها كان يحضر أرباب الدور التي يريد نقلهم عنها فيقول للواحد منهم «ان هذه الدار التي لك يا هذا أريد أن أبتاعها لجماعة المسلمين من مالهم وفيئهم لازيدها في جامعهم وموضع صلاتهم فشطط واطلب ماشئت» فاذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له وأن تشترى بعد ذلك له دار وضاع عنها حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة فقالت «لا أقبل عوضا الا دارا بنخلة» فقال «تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال» فاشتريت لها دار بنخلة وبولغ في الثمن (وهو دليل على شدة عناية القوم باشياء المشرق وكثرة حنينهم الى النخل الخاص ببلادهم الاصلية ولعبد الرحمن الداخل ولغيره من الملوك قصائد جليلة في مخاطبة النخل) وقد استمر المنصور في أعمال الزيادة بالجامع مدة سنتين ونصف وكان يخدم فيه بنفسه كأحد العمال وكان قصده الزيادة في الاتقان والوثاقة دون الزخرفة واعلم ان هذا المسجد أصبح الآن عبارة عن كنيسة كتدرائية جامعة وقد بقيت معالمه الرئيسية على ماهي عليه وأقسم بالله انى أكثرت من البكاء المرحيم مادرت في صحونه وبين عمدانه ووقفت في محرابه وتأملت مافيه من غرائب الاتقان التي لاتخطر على بال مع الفخامة والضخامة وهو متجلبب بجلباب من الجلالة يوجب المهابة التعبدية في نفس الزائر ويجعله يشعر

حقيقة بوجود خالق معبود قسم الحظوظ وقدر الارزاق وأراد ما أراد ولا أتصور أن الخشوع الديني والخضوع التعبدي يحدث في نفس أي انسان في أي معبد من المعابد التي اقامتها جميع الامم على اختلاف نحلها ومقالاتها بكيفية أكثر وأظهر وبانفعال أتم وأكمل مما رأيته في هذا الجامع الذي يحتوي على ١٢٩٣ عمود من مختلف الرخام والصوان وكلها منقوشة التاج والقاعدة بكيفيات تخالف بعضها وقد كانت قبته مستندة على ٣٦٥ عمود من نفيس المرمر وبلغ مسطحه ٢٣١٥٠ ذراع مربع وأما المحراب فقد رأيته مصنوعا من أحجار دقيقة مختلفة الالوان متركبة مع بعضها على نظام النص والفسيفساء بحيث تحدث منها أشكال متناهية في الجمال وآيات قرآنية وأحاديث نبوية واذا نظر اليها الانسان من ذات اليمين رأى ألوانا وأضواء وأشكالا وتراكيب تخالف كل ما يراه لو وقف جهة الشمال وكذلك الامر فيما لو وقف في الوسط أو تقدم أو تأخر وهكذا وخلاصة القول اني أتصور هذه القبلة مركبة من أحجار كريمة دقيقة مرصوفة بجانب بعضها بأكمل ذوق وأحسن أسلوب

ثم خرجت من قرطبة منقبض الصدر مكلوم الفؤاد ولم أرض برؤية شئ غير المسجد في عاصمة الاندلس العربية

وقمت الى مدريد ومنها الى سرقسطة الى برشلونة Barcelone الى مارسيلية فبقيت بها أياما شاهدت كل ما يجوز للغريب وعابر

السبيل ان يراه فيها وفى أول فبراير سنة ١٨٩٣ امتنع الخبازون عن اصطناع الخبز لخلاف فى التثمين وقع بينهم وبين البلدية فكان لذلك منظر من أغرب المناظر واستمر الحال ثلاثة أيام كاد الناس يقتلون بعضهم فيها ثم انحسمت النازلة على أحسن حال

ورأيت فيها آثارا كثيرة وأعمالا عظيمة منها القصر والبستان والمتنزه (البرادو) الذى لانظيرله فى العالم وكنيسة فاخرة على جبل عال يصعد اليها بعربات تجرها قوة الغاز من أسفل الى أعلى على قضبان حديدية تكاد تكون رأسية عمودية بلصق الجبل وهى تزيد فى العظمة عما رأيته فى تورينو وركبت فى عربات الامنيبوس التى تجرها الكهرباء باسلاك معلقة فى الجو تتصل العربة بها بواسطة سلك معدنى فتندفع العربة الى الامام أو الخلف بقوة شديدة أو خفيفة أو تقف مرة واحدة بحسب ارادة السائق عند اللزوم . وأقول الحق ان أول شئ عنيت به عند دخولى اليها أنى أكلت من طعامها المشهور وهو البوبابيس la bouillabaisse ورأيت كثيرا من مصانعها ومعاملها والذى يستحق الذكر منها الآن بغاية الايجاز هو معمل أنشأه أحد الاطباء للمساعدة على إتمام خلق الجنين الذى يولد بعد ٦ أو ٧ أو ٨ أشهر أى كل جنين يولد قبل الميعاد وتكون فيه الروح ولكنه اذا تُرك مات فى الحال فترى الاجنة موضوعة فى بواقيل زجاجية فيها الحرارة والغذاء

مدبرتين تدبيرا عجيبا بأنابيب تتصل الى الجنين بدرجات معلومة ولله في خلقه أسرار تبارك الواحد القهار

ثم قمت الى مدينة تولون وهي أهم ميناء حربية بحرية ببلاد فرنسا وقد كان للمسلمين بها جامع فخيم في أيام السلطان سليمان القانوني فان شرلكان ملك فرنسا استنجد بالسلطان العثماني فارسل له عمارة بحرية تحت قيادة الاميرال خير الدين باشا المعروف عند الافرنج باسم Chéridin المشتهر عندهم أيضا باسم Barbeousse أي ذي الذقن الصهباء وقد أقام الاميرال العثماني بالمدينة شتاء كاملا وكان له الحكم المطلق فيها وقد جعل أحد دورها الكبيرة مسجدا جامعا للمسلمين

ثم اني قمت الى مدينة نيس (Nice) المعروفة عند العرب باسم نيقة فانهم قد احتلوها هي وشواطئ فرنسا الجنوبية زمنا مديدا وهي من أجمل المدن وأنظفها وأنظفها وغاية ما أقوله عنها الآن أني شاهدت فيها الاحتفال بالكرنفال (أي عيد المرافع) وهو أعظم احتفال يحصل في العالم كله من هذا القبيل اذ تجيء اليها قطارات مخصوصة لحضور هذا اليوم المشهود من لوندره وباريس وبرلين وويانة ورومة وغيرها من امهات مدن أوروبا كلها بل ويحضرها في هذه الفرصة كثير من أهل أمريكا ويحتفل به الاهالي والبلدية احتفالا يشمل جميع أجزاء المدينة ويدفع التجار رسما معينا للمعاونة

البلدية على تنظيم الاحتفال والانوار باغرب ماتتصوره العقول وأبهى ماترتاح له النفوس ومتى حلت أيام المرافع ارتفع سلطان العقل من آفاقها وذهب موليا الادبار طالبا النجاة بنفسه فى غير هذه الديار ثم يحتلها سلطان الجنون بجنوده فتسقط التكاليف وتمتنع الحيثيات ويبقى الناس كلهم كلهم كلهم فى درجة واحدة فرحين مستبشرين ضاحكين ساخرين وهم متشحون بغرائب الملابس ويتخذون لوجوههم ورؤسهم صورا ماأنزل الله بها من سلطان ويرقصون جميعهم فى الشوارع مختلطين نساء ورجالا وعذارى وأطفالا ويترامون بقصاصات الورق Confetti والارز والفصولية وباقات الازهار وغير ذلك مما لا تحيط به الافكار وهم يسيرون زرافات ووحدانا مشاة وركبانا ويتخذون عربات غريبة الشكل تضحك الثكلى وتزيل طوعا أوكرها تقطيب الوجه العبوس ويصطنعون سفنا تجرها الافراس والخلاصة أنهم يركبون من الرقاعة والخلاعة كل متن ويذهبون فيهما كل مذهب ومع ذلك ترى النظام سائدا ولادب العمومى ضاربا أطنابه فى قواعده الكلية فقط وهم فى هذه الايام لا يعرفون الزعل أو الكدر أو الغيظ أو الحنق أو المضايقة أو غير ذلك مما هو من مستوجبات الطبيعة البشرية ولهم فى ذلك نظامات ورسوم معلومة لكل يوم من أيام الاحتفال ولا شك ان شرح ذلك بالبيان الذى يجيش فى صدرى

يستوجب رسالة ضافية مطولة لا يسعها المقام الآن وليس الخبر كالعيان

ثم قمت الى مدينة موناكو ومنت كارلو (منت قارلة فى كتب الجغرافية العربية القديمة) ورأيت جمال مناظرهما الطبيعية وصفاء البحر تحت أقدامهما وبهاء الجبال فوقهما ونضرة الاشجار فى جميع جهاتهما وغير ذلك من المنازه الطبيعية والصناعية التى تنبسط لها النفس وينشرح منها الخاطر ومدينة منت كارلو مشهورة بالمنتدى الذى هو أكمل وأجمل منتديات العالم فى لعب الميسر (القمار) وقد زرته للوقوف على حقائقه وأحطت علما بقوانينه واجراآته

ورأيت بها معرضا عاما خصصوا له محلا عظيم الاتساع ليعرض فيه العارضون كل ما يريدونه من صناعة وتجارة وفنون وعلوم وزراعة وغير ذلك وتعطى فيه لاحسن العارضين وسامات وشهادات على سبيل المكافأة ـ وما أحسن ما قالته احدى الجرائد فى هذا المعنى «كان الاليق بهذه الامارة أن تقيم معرضا لفنون العاب القمار لانها احتكرتها ونبغت فيها بل تفردت بها على غيرها من الممالك والبلدان»

ثم خرجت منهما قاصدا بلاد ايطاليا فمررت على جنوة فبيشة (لأنساها) فرومة وأقمت بها ثلاثة أيام ورأيت فيها الاحتفال بالكرنفال

وشاهدت حرب الزهور Bataille des fleurs ولكن احتفالها مع جسامته وفخامته لا يساوى جزأ من عشرين مما رأيته فى نيقة Nice ثم ركبت البحر عن طريق برندزى ووصلت الى الديار وحمدت الله على ما حصل من توفيقه لى وعنايته بى أكثر مما كانت تحوم حوله آمالى

* * *

والناظر الى هذه الرسائل يعلم انى بارحت القاهرة فى يوم ١٤ اغسطس سنة ١٨٩٢ ورجعت اليها فى يوم ١٤ فبراير سنة ١٨٩٣ فتكون مدة رحلتى ستة شهور بالتمام قد لاقيت فيها حر أوروبا وحرارته كأشد ما يكون وقاسيت بردها وصبارته فوق ما يقدر عليه شرقى مثلى تغرب فى أوروبا لاول مرة ويرى انى زرت مرتين ثنتين خمسة من عواصم أوروبا وهى رومة وباريس ولوندره ومدريد واشبونة منها مملكتان يحكمهما ملكان من الرجال وهما ايطاليا والبرتقال ومنهما مملكتان أخريان تحكمهما ملكتان وهما انجلترة والاندلس والخامسة جمهورية فرنسا وتقابلت بجلالة ملك ليفربول وتشرفت بلقاء ملك البرتقال وملكة الاندلس وانى زرت أكثر من أربعين مدينة زيارة تدقيق وتحقيق وتعلمت لغة أهل الاندلس الحالية حتى توصلت الى الكتابة والخطابة بها على قدر الامكان وزرت مناجم الفحم وبلاد

الاندلس بالتفصيل وكتبت شيأ يسيرا مما عرفته عنها فقصت هنا الباب وشاهدت ثلاث مدائن مخصصة لطلبة العلم فقط وهى أكسفورد فى انجلترة وقلمرية فى البرتغال وشلمنقة فى إسبانيا وحضرت عيد الميلاد فى مدريد وعيد رأس السنة فى لشبونة وأكلت الفول المدمس باوروبا ولم يحصل ذلك لغيرى من المصريين وحضرت جلسات مجلسى النواب والشيوخ فى فرنسا وشاهدت الاحتفال الرسمى بافتتاح مجلس نواب البرتغال وحضور الملك والملكة والقاء الخطبة الملوكية وشاهدت قتال الاثوار فى اسبانيا واعتصاب الخبازين وامتناعهم عن عمل الخبز مدة ثلاثة أيام فى مارسيليا والاحتفال بالكرنفال (المرافع) فى نيقة Nice وروميه وغير ذلك من الامور الكثيرة المتعددة التى لم يتيسر حصولها مرة واحدة وفى رحلة واحدة لمصرى قبلى وان ما ذكرته وخصوصا عن الاندلس فى هذه الرسائل هو قليل جدا فى جانب ما أتوسل إلى القادر الكافى توالت نعماؤه ان يوفقنى ويعيننى على تحريره وتدوينه فى الرحلة الكبرى لتكون هى وهذه الرسائل وسيلة لحث بنى الاوطان على السياحة والافادة والاستفادة وعسى ان كل واحد يذهب فى أوروبا من طريق غير الذى رسمته يكتب لنا عما يراه وعما تنبئه به احساساته ليتكون فى

لغتنا الغريبة مجموعة سياحات توقف القارئ على أحوال هاتيك البلاد التى أصبحت منبع التقدم ومقر العرفان .

***

والمأمول فى وجه الله الكريم المنان أن يوفق أبناء الوطن الى توفيته حقه من الخدمة فى ظل فخر الانام وعماد الزمان ولى العصر ومليك مصر مولانا الاكرم وخديوينا المبجل عباس باشا حلمى الثانى أدامه الله كهفا للمعالى فهو الذى تفضل على بنظره العالى وانعامه المتوالى حتى كتبت هذه الرسائل وبثثتها فى قومى قياما بما وجب له من فرائض الشكر على عبده

المخلص



المصدر :

السفر الى المؤتمر – وهي الرسائل التي كتبها على اوروبا .

احمد زكي – الطبعة الثانية –

المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية

١٣١١ هـ

١٨٩٤ م



استدراكات

وبهذه المناسبة أورد هنا ما عندي من النصوص العربية المعتبرة التي تدل على أن بورتو هي المعروفة عند العرب باسم برتقال بالباء الموحدة والراء المهملة والتاء الفوقية والقاف يتلوها ألف ولام والذي دعاني للتعجيل بإيراد هذه النصوص في هذا المقام مع أنني كنت وعدت في صحيفة ٣٩٥ بأنني سأوردها في الرحلة أن بعض الأدباء قد طالبني بها فلم أر مندوحة من تعجيل الجواب

قال في الجزء الثاني من البيان المغرب في أخبار المغرب للمراكشي الذي طبعه

العلامة المحقق دوزى فى مدينة ليدن سنة ١٨٤٩ مانصه بالحرف «الى أن خرج»
«الحاجب المنصور أبو عامر يوضع برتقال على نهر دورة ...... وقد كان»
«المنصور تقدم فى انشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من»
«ساحل غرب الاندلس وجهزه برجال البحرية وصنوف المترجلين وحمل»
«الاقوات والاطعمة والعدد والاسلحة استظهارا على نفوذ العزيمة»

وقال فى الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة
فاس المطبوع فى مدينة أوبسالا *Upsala* سنة ١٨٤٣ مانصه بالحرف
الواحد «وفى سنة أربع وخمسين وماية فتح الامير سير بن أبى بكر سنتريش»
«و بطليوس و برتقال ويابورة والاشبونة وجميع بلاد الغرب»

وفى هذا أكبر كفاية وأوفى غاية والله محيط بالمخلصين من عباده

(٥) يقول مؤرخو الافرنج ان الذى بقى مع بلاى أو بلايه أو بلايو Pélage
أو Pelayo ٤٠٠ رجل فقط لا ٣٠٠ كما ذكرته عن مؤرخى العرب
ولكن الطرفان متفقان على تمام القصة المذكورة فى صحيفة ١٢٤

(٦) قد قلت فى صحيفة ٤٢٨ أثناء الكلام على «ابن القوطية أحد مشاهير كتاب
الاندلس» «ان العرب أطلقوا اسم القوطية La Goda بالاسبانية و La Gothe
بالفرنساوية على سارة Sara حفيدة الملك القوطى ويتيزا Witiza أو Vitiza
المعروف عند العرب باسم غيطشة وربما كان الرجل من نسلها»

والحمد لله فقد تحقق هذا الظن وصار الآن من اليقينيات فاليك أيها المحب
للابحاث التاريخية ماأورده بهذا الخصوص العلامة ابن خلكان فى ترجمة أبى بكر محمد بن
القوطية قال

(والقوطية بضم القاف وسكون الواو وكسر الطاء المهملة وتشديد الياء المثناة
من تحتها وبعدها هاء ساكنة هذه النسبة الى قوط بن حام بن نوح عليه السلام نسب اليه

حمدة أبي بكر المذكور . . . . وهي أم ابراهيم بن عيسى ابن مزاحم جد أبي بكر المذكور وهي ابنة وبة بن غيطشة وكان من ملوك الاندلس وكانت القوطية المذكورة وفدت على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها ارطباس المذكور رفتزوجها بالشام عيسى بن مزاحم المذكور وهو من موالى عمر بن عبد العزيز الاموي رضي الله عنه وسافر معها الى الاندلس فكان ذلك سبب انتقال عيسى بن مزاحم الى الاندلس وانساله بها . . . . . . وغلب اسمها على ذريتها وعرفوا بها الى اليوم الخ)

(٧) قلت في صحيفة ٤٠٣ اني لم أتعرف الاصل الافرنكي في جملة اعلام أندلسية منها انجلينو ومردنيش وأقول الآن ان انجلينو مأخوذ من أنجيل Angel بمعنى الملك بفتح اللام في اللغة الاسبانية وهم يقولون بالتصغير Angelino ومنه أخذ اللفظ العربي ولا يزال هذا الاسم مستعملا في التسمية عند الافرنج عموما وأما مردنيش فاني أظن انه مأخوذ من Martin مرتين و Martinis مرتينيس ثم صارت مردنيش

(٨) بمناسبة ماذكرته في صحيفة ٤٣٣ من ان بعض الاندلسيين أضافوا الى أسمائهم الواو والسين والياء والسين وان ذلك شبيه باللاتينية التي تنتهي الاعلام وأغلب الاسماء فيها بهذه الاداة Us أو Is أقول الآن انه يوجد في نفس اللغة العربية ألفاظ تدخل عليها الواو والسين والياء والسين لزيادة التأكيد مثل قديم وقدموس والقط والقطوس والاس والاسيس والبقس والبقسيس والقس والقسيس واني أورد لك الآن جملة كلمات من هذا القبيل ترى معناها محفوظا فيها بعد حذف الحرفين الاخيرين منها فاحرص على ذلك وراجع كتب اللغة بكل

عناية وتدقيق وهي . سقوس . جعسوس . جعموس . حرقوس . حربسيس .
مربسيس . حمقوس . حندوس . دحموس . خربسيس . خابوس .
خلبيس . خلنبوس . دردبيس . درهوس . دعبوس . درهوس . دلعوس .
دلعبيس . ضبوس . طرطبيس . طرموس . طغموس . طاهيس .
طمروس . عبقوس . عتريس . عشتريس . عمروس . عرنسبيس .
عطلوس . عيطموس . عفروس . كموس علطبيس . علطوس . عطميس .
عمروس . فرطوس . فلطوس . فنجليس . قربوس . قرطبوس . عرقوس . فرعوس .
قرنوس . قنطريس . هجوس . هلبسيس . هاطوس .

واعلم ان من تتبع كتب اللغة علم ان الكلمات التي في آخرها سين تدل في أغلب الغالب على القوة والشدة والصلابة

(٩) تكلمت في صحيفة ٤٦٩ على اقطاع تميم الداري وأقول الآن انى رأيت بعد ذلك في الكتبخانة الخديوية رسالة السيوطي على هذا الاقطاع في مجموعة نمرة ٥٣ ولكن شتان بين كتابة السيوطي والمقريزي في هذا الموضوع الدقيق

(١٠) تكلمت في صحيفة ٤٧٣ على لغز الماء الذي أورده المقريزي حله وأقول الآن انى رأيت هذا اللغز تحت عنوان (لغز في ٣١٢) في صحيفة ٢٣ من كتاب الكنز المدفون والفلك المشحون المطبوع في بولاق سنة ١٢٨٨ صحيحه هذا لغوا الالغاز وكذلك هو في الكشكول

(١١) فاتني أن أذكر أثناء الكلام على الكتب التي ترتبت فيها آيات القرآن الكريم ان الحاج صالح ناظم بن محمد بن اسمعيل رتب كتابا اسمه (ترتيب زيبا) ورأيت نسخة منه مطبوعة على الحجر في القسطنطينية سنة ١٢٨٤ وفيه جدول برقم أسماء السور ثم جدول آخر للآيات مرتبة بحسب حروف الهجاء في أوائلها فقط ثم جدول ثالث لعدد الآية وهو كتاب مختصر مفيد

الطبع وفـرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٠

داخل القطر ٤٠ ل.س

خارج القطر ٨٠ ل.س